اقرأ

مبارك إبراهيم

نساء شهيرات

دار المعارف بمصر

مبارك إبراهيم

نساء شهيرات

اقرأ ١١٩
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١١٩ — ديسمبر ٥٢



مقدمة

هذا كتاب يضم بين دفتيه ترجمة حياة ثمان من شهيرات النساء فى العالم منذ ألفين من السنين إلى يومنا هذا .

فنهن « سكينة بنت الحسين » الشريفة الطاهرة المطهرة . والزهرة الباسمة الناضرة . بين زهرات أهل البيت . وهى التى بجدها أنبياء الله قد ختموا .

وأبوها هو مولانا عبدالله الحسين بن على الذى ورد فى حقه أن الرسول عليه صلوات الله وسلامه جاء معه على وفاطمة والحسن والحسين . ثم أخذ كل واحد منهما على فخذه . ثم لف عليهم كساء ثم تلا هذه الآية الكريمة : « وإنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » . وقال : اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً .

ومنهن « كليوباطرة » ملكة مصر التى أغرمت بالسؤدد والمجد . فبذلت فى سبيلهما ما بذلت . وعاشت ولسان حالها يقول :

« لنا الصدر دون العالمين أو القبر »

ومنهن « چان دارك » التى خيل إليها أنه قد أوحى إليها أن تخليص بلادها من براثن الغاصب قد أصبح فرضاً عليها ، فقامت بما فرض عليها فى صدق وإخلاص . وقالت — ولهيب النار التى أعدت لتحريقها يرتفع حولها — : « إن الله سبحانه هو الذى أرسلنى . وأنا الآن أعود إليه » . ثم نالت جزاءها الأوفى . جزاء الصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس . فاعترف الناس بقداستها . وأعلنوا ذلك بعد أربعمائة عام فاستراحت عظامها فى قبرها .

ومنهن « كريستينا ملكة السويد » . وأولى لها ثم أولى أن تسمى ملكة النقيضين . فقد خلعت نفسها عن عرش آبائها . ثم عادت تعض بنان الندم . فسعت سعيها لتكون ملكة على « پولندا » أو على « ناپولى » . وكانت تارة تبدو فى سمت الملكات وعظمتهن ، وطوراً تبدو فى ملابس المهرجين الساخرين . وكانت تركب الخيل وتقاتل كما يقاتل الفرسان . . . وكذلك كانت تقص الأقاصيص المخزية فى غير خجل أو حياء . وتجلس فى وضع هو أبعد الأوضاع عن جلسة النساء .

ومنهن « إليزابيث » باريت بروتنج » تلك الشاعرة التى أحبت شاعراً فأنتج هذا الحب — على الرغم من سخط أبيها وغضبه — أبدع مقطوعات شعرية منذ عصر شكسبير .

ومنهن « سوزان برونل أنتونى » . تلك الثائرة على العرف

والخارجة على التقاليد . والتي قال عنها عميد كلية البنات التي كانت هي ناظرة قسم البنات فيها : إن هذه المرأة هي أذكى رجل جاء إلى مدينتهم .

وهي التي كسبت لبنات جنسها حق التمتع بالحقوق المدنية . فأصبح لهن حق الامتلاك . وحق التصرف فيما يملكن . كما أصبح لهن حق التقاضي . وحق التعاقد . وحق الاحتفاظ بأموالهن . وحق مشاركة أزواجهن في الولاية على أطفالهن .

ومنهن « فلورنس نيتنجيل » منقذة المرضى والجرحى . لا في حرب « القرم » التي بدأت أعمال التمريض فيها . بل في كل مستشفى أقيم ويقام للمرضى والجرحى من الجنود منذ تلك الحرب إلى يوم تقوم الساعة . وقد لقيت في سبيل ذلك العنت كل العنت . وهي الغنية المترفة المثقفة . فقد كانت أجمل فتيات أسرة « نيتنجيل » وأكثرهن ثقافة . وقد كانت بارعة في الرياضيات العالية . وفي الموسيقى والعلم والفن والأدب . كما كانت بارعة في الإيطالية والألمانية والفرنسية . كما كانت تعرف اللغات القديمة.

وقد ماتت « فلورنس نيتنجيل » وهي تتساءل في صحوة الموت : أأنا تلك التي وقفت فوق مرتفعات القرم ؟

ومنهن « سارة برنار » أبرع ممثلة ظهرت في الوجود . وأكبر الظن أن لن يكون لها بين بنات فنها ند أو قرين .

وهي ممثلة بفطرتها بل إن كل دور من أدوار حياتها دور من

أدوار التمثيل فى مختلف أنواعه كالدرام. والكوميدى. والتراجيدى. والميلودرام . والڤودڤيل .

وكانت « سارة » تجيد تمثيل أدوار الموت . وكانت تضع نعشاً إلى جانب سريرها . حتى يكون أول شيء يقع عليه نظرها إذا صحت من نومها . وكانت هذه طريقتها فى تحدى الموت . وكانت لا ترضى بأقل من التمام . سواء أكان ذلك فى الحسن أو فى القبيح .

(وبعد) فإنى لأرجو أن أكون قد أحسنت الاختيار . . .

مبارك إبراهيم

سكينة بنت الحسين

ملامك فى أهل النبى فإنهم أحباى ما عاشوا وأهل ثقاتى
فيارب زدنى من يقينى بصيرة وزد حبهم يارب فى حسناتى

أبوها سيدنا الإمام الحسين رضى الله عنه . وهو الحسين بن على بن أبى طالب ابن عبد المطلب بن هاشم .

وأم الحسين فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأمها خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى .

وكان على كرم الله وجهه قد سمى الحسين حرباً فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحسين » .

تزوج الحسين « الرباب » بنت امرئ القيس بن عدى الكلبية . وهى أم سكينة . وهذا لقب لها . واسمها آمنة . وقيل « أمينة » . وقيل « أميمة » .

وهى تحسب من بنات النبى . ذلك لأنه قد قيل إن أولاد فاطمة وذريتهم يسمون أبناء النبى . وينسبون إليه نسباً صحيحاً .

ومن المأثور عنها أنها قالت :

عاتب عمى الحسن أبى فى أمى فقال :

لعمرك إننى لأحبُّ داراً تكون بها سكينة والرباب

أحبهما وأبذل جلّ مالى ... وليس لعاتب عندى عتاب
فلست لهم ــ وإن غابوا ــ مضيعاً ... حياتى أو يغيبنى التراب

وامرؤ القيس بن عدى جد سكينة لأمها أسلم على يد عمر ابن الخطاب رضى الله عنه . فما صلى صلاة حتى ولاه عمر . وما أمسى حتى خطب إليه على عليه السلام ابنته « الرباب » على ابنه « الحسين » فزوجه إياها . فولدت له « عبد الله » و« سكينة » وكانت « الرباب » من خيار النساء وأفضلهن . وخُطبت بعد قتل الحسين فقالت : ما كنت لأتخذ حماً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد رثت « الرباب » زوجها الحسين حين قتل فقالت :

إن الذى كان نوراً يستضاء به ... بكربلاء قتيل غير مدفون
سبط النبي جزاك الله صالحة ... عنا وجُنبت خسران الموازين
قد كنت لى جبلاً صعباً ألوذ به ... وكنت تصحبنا بالرحم والدين
من لليتامى ومن للسائلين ومن ... يُغنى ويأوى إليه كل مسكين
والله لا أبتغى صهراً بصهركم ... حتى أغيب بين الرمل والطين

ويروى أن سكينة كانت فى مأتم فيه بنت لعثمان . فقالت بنت عثمان : أنا بنت الشهيد . فسكتت سكينة . فقال المؤذن : أشهد أن محمداً رسول الله . قالت سكينة : هذا أبى أو أبوك ؟ فقالت العثمانية : لا أفخر عليكم أبداً .

وكانت سكينة تجىء يوم الجمعة فتقوم بإزاء خالد بن

عبد الرحمن بن الحرث بن الحكم إذا صعد المنبر. فإذا شتم علياً شتمته هى وجواريها . فكان يأمر الحرس يضربون جواريها .

يروى أنه لما تزوج مصعب بن الزبير « سكينة » رضى الله عنهما أمهرها ألف ألف درهم وولدت له « الرباب » . وكانت تلبسها اللؤلؤ . وتقول ما ألبستها إياه إلا لتفضحه .

قال مصعب : كانت « سكينة » عفيفة سليمة برزة من النساء . تجالس الأجلة من قريش . وكانت عالمة أديبة . يجتمع إليها الشعراء فيجلسون بحيث تراهم ولا يرونها . وتسمع كلامهم فتفاضل بينهم وتناقشهم . وكانت ظريفة مزّاحة . قيل لها : أنت تمزحين كثيراً . وأختك لا تمزح . فقالت : لأنكم سميتموها باسم جدتها المؤمنة (تعنى فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم) . وسميتمونى باسم جدتى التى لم تدرك الإسلام (تعنى آمنة بنت وهب أم رسول الله صلى الله عليه وسلم» وقال مصعب : كانت « سكينة » أحسن الناس شَعراً. وكانت تصفف جمتها تصفيفاً لم أر أحسن منه حتى عرف ذلك . وكانت تلك الجمة تسمى السكينية. قالت « سكينة» لعائشة بنت طلحة : أنا أجمل منك . وقالت عائشة : بل أنا : فاختصمتا إلى عمر بن أبى ربيعة . فقال لأقضين بينكما . أما أنت يا سكينة فأملح . وأما أنت يا عائشة فأجمل منها . فقالت «سكينة» : قضيت لى والله .

ولما تزوج زيد بن عمرو بن عثمان « سكينة » شرطت عليه

ألا يُغيرها . ولا يمنعها شيئاً تريده . ولا يخالفها فى أمر تريده . فكانت تقول له يا عثمانى : اخرج بنا إلى مكة . فإذا خرج فسارت يوماً أو يومين قالت : ارجع بنا إلى المدينة . فإذا رجع يومه ذلك قالت : اخرج بنا إلى مكة . فقال له سليمان بن عبد الملك : اعلم أنك قد شرطت لها شروطاً إن لم تف لها فطلقها . فطلقها .

قال « سفيان بن حرب » : رأيت سكينة بنت الحسين ترمى الجمار فسقطت من يدها الحصاة السابعة فرمت بخاتمها .

ومما يؤثر عنها أنها كانت تجود بكل ما تجد من مال . فإن لم يكن مال فبُدَملج تنزعه أو سوار .

وفى « سكينة » يقول عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى كذباً عليها :

قالت سكينة والدموع ذوارف ... تجرى على الخدين والجلباب
ليت المغيرىّ الذى لم أجزه ... فيما أطال تصيُّدى وطلابى
كانت ترد لنا المنى أيامنا ... إذ لا نلام على هوى وتصاب .
خبرت ما قالت فبت كأنما ... يرمى الحشى بنوافذ النشاب
أسكين ! ما ماء الفرات وطيبه ... منى على ظمأ وفقد شراب
بألذ منك وإن نأيت وقلما ... ترعى النساء أمانة الغيّاب
إن تبذلى لى نائلا أشفى به ... داء الفؤاد فقد أطلت عذابى
وعصيت فيك أقاربى وتقطعت ... بينى وبينهم عرى الأسباب

فتركتني لا بالوصال ممتعاً   منهم ولا أسعفتني بثواب
فقعدت كالمهريق فضلة مائه   في حر هاجرة للمع سراب

غفر الله لعمر فقد كان لا يعني ما يقول . وقد قال الله في محكم آياته :

« والشعراء يتّبعهم الغاوون . ألم تر أنّهم في كل واد يهيمون وأنّهم يقولون ما لا يفعلون » .

ويروى أن « سكينة » كانت من أجمل نساء زمانها وأعقلهن. وكان مصعب بن الزبير قد جمع بينها وبين عائشة بنت طلحة فلما قتل مصعب قالت سكينة :

فإن تقتلوه تقتلوا الماجد الذي   يرى الموت إلا بالسيوف حراما
وقبلك ما خاض الحسين منية   إلى القوم حتى أوردوه حماما

وكانت « سكينة » سيدة الناقدين للشعراء . وكانت تنظر في نقدها إلى نبل الغرض . وشرف اللفظ . وجلال المعنى . فهي حكم الشعراء الذي لا يرد حكمه . ولا يضل رأيه . ولا تبدو مزلته. وكانوا يفدون على دارها من كل صوب وحدب . وكلهم قد عقد يده على خير ما قال . وليس بينهم إلا من كان حديثه طوال طريقه عما عسى السيدة أن تقوله وتحكم به . لأنه سيكون بين المتأدبين وبغاة الشعر يقيناً لا شك فيه .

اجتمع إليها ذات مرة « جرير » و « الفرزدق » و « كثير » و « جميل » و « نُصيب ». فنقدت لكل شعره ، وآخذت عليه

مأخذه . ثم أثابت كلا بألف دينار . فرجعوا بخمسة آلاف دينار.

وما كان الخليفة ليظفرهم بما دونها حتى يجمعوا فيه من الفضائل ما تفرق فى الأبرار والمقربين . والكرام الكاتبين . والقادة الفاتحين .

كذلك كانت مثوبتها للمغنين. وكان بصرها بمذاهب الغناء. وضروب الإيقاع . كبصرها بأعطاف الشعر . وقطاف الأدب .

وروى محمد بن سلام الجمحى قصة نقدها لهؤلاء الشعراء قال :

اجتمع فى ضيافة « سكينة » بنت الحسين رضى الله عنهما جرير . والفرزدق . وكثير . ونصيب . وجميل . ومكثوا فى ضيافتها أياماً . ثم أذنت لهم فدخلوا عليها . فجلست حيث تراهم. ولا يرونها . وتسمع كلامهم . ثم أخرجت وصيفة قد روت الأشعار والأحاديث. فقالت أيكم الفرزدق؟ فقال هأنذا فقالت له أنت القائل :

هما دليانى من ثمانين قامة كما انقض باز أقتم الريش كاسره
فلما استوت رجلاى فى الأرض قالتا أحىٌّ فيرجى أم قتيل نحاذره

قال نعم . قالت : فما دعاك إلى إفشاء سرك وسرهما . هلا سترتهما . وسترت نفسك . خذ هذه الألف درهم والحق بأهلك . ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت أيكم جرير ؟ فقال لها ها أنذا فقالت أنت القائل :

طرقتك صائدة الفؤاد وليس ذا   وقت الزيارة فارجعى بسلام

قال نعم. قالت فهلا رحبت بها. خذ هذه الألف درهم وانصرف. ثم دخلت وخرجت فقالت : أيكم كثير؟ فقال ها أنذا . قالت أنت القائل :

وأعجبنى يا عزّ منك خلائق   كرام إذا عد الخلائق أربع

دنوك حتى يطمع الطالب الصبا   ورفعك إنسان الهوى حين يطمع

فوالله ما يدرى كريم مماطل   أينساك إذ باعدت أو يتضرع

قال نعم . قالت ملحت وشكلت . خذ هذه الألف والحق بأهلك. ثم دخلت وخرجت فقالت أيكم نصيب؟ فقال ها أنذا. قالت أنت القائل :

ولولا أن يقال صبا نُصيب   لقلت بنفسى النشأ الصغار

بنفسى كل مهضوم حشاها   إذا ظلمت فليس لها انتصار

قال نعم قالت ربيتنا صغاراً . ومدحتنا كباراً . خذ هذه الأربعة آلاف درهم . والحق بأهلك . ثم دخلت وخرجت فقالت يا جميل مولاتى تقرئك السلام وتقول : والله ما زالت مشتاقة إلى رؤيتك منذ سمعت قولك :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة   بوادى القرى إنى إذن لسعيد

فكل حديث بينهن بشاشة   وكل قتيل بينهن شهيد

جعلت حديثنا بشاشة . وقتلانا شهداء . خذ هذه الألف دينار والحق بأهلك .

ومن الروايات التى تروى عن براعتها فى النقد القصة التالية :

قيل اجتمع راوية « جرير » وراوية « كثير » وراوية « جميل » وراوية « الأحوص » وراوية « نُصيب » فافتخر كل واحد منهم بصاحبه. وقال صاحبي أشعر. فحكّموا بينهم «سكينة» لما يعرفونه من عقلها وبصرها بالشعر فاستأذنوا عليها فأذنت لهم فذكروا لها الذى كان من أمرهم . فقالت لراوية « جرير » : أليس صاحبك الذى يقول :

طرقتك صائدة الفؤاد وليس ذا وقت الزيارة فارجعى بسلام

قال نعم : قالت : وأى ساعة أحلى للزيارة من الطروق ؟ قبح الله صاحبك . وقبح شعره . هلا قال : فادخلى بسلام . ثم قالت لراوية « كثير » : أليس صاحبك الذى يقول :

يقرّ بعينى ما يقرّ بعينها وأحسن شيء ما به العين قرّت

قال نعم . قالت : قبح الله صاحبك . وقبح شعره .

ثم قالت لراوية « جميل » : أليس صاحبك الذى يقول :

فلو تركت عقلى معى ما طلبتّها ولكن طلابيها لما فات من عقلى

قال نعم . قالت : فما أرى رأى صاحبك . قبح الله صاحبك وقبح شعره . ثم قالت لراوية الأحوص : أليس صاحبك الذى يقول :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت فواحزنا من ذا يهيم بها بعدى

قال نعم . قالت : فما أرى له همة إلا فيمن يتعشقها بعده .

قبحه الله وقبح شعره . ألا قال :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى

ثم قالت لراوية نصيب : أليس صاحبك الذى يقول :

من عاشقين تواعدا وتراسلا حتى إذا نجم الثريا حلقا

باتا بأنعم ليلة وألذها حتى إذا وضح الصباح تفرقا

قال نعم . قالت : قبح الله صاحبك وقبح شعره . ألا قال تعانقا .

قال راوى القصة : إنها لم تثن على أحد منهم فى ذلك اليوم ولم تقدمه . وفى رواية أخرى أنها قالت لراوية جميل : أليس صاحبك الذى يقول :

فياليتنى أعمى أصم تقودنى بثينة لا يخفى على كلامها

قال نعم . قالت : رحم الله صاحبك إن كان صادقاً .

رضى الله عن السيدة « سكينة » وأجزل ثوابها .

وقد توفيت السيدة سكينة ودفنت بالمدينة . وذلك على أرجح الروايات . . .

كليو باطرة
٦٩ ـــ ٣٠ قبل الميلاد

كان قيصر قد وصل من فوره إلى الإسكندرية وكان مزهواً بانتصاره على بومبى وقد حط رحاله فى القصر . وبدأ يقوّم ما انآد ويصلح ما اعوج فى السياسة المصرية .

وكان أوليت قد مات . وكان اثنان من أولاده وهما بطليموس وكليوباطرة يتنازعان ارتقاء العرش .

وكانت كليوباطرة فى المنفى عند وصول قيصر . إذ كان أنصار أخيها قد نجحوا فى إبعادها إلى سوريا .

ويبدو أن بطليموس ـــ وكان صبياً فى الرابعة عشرة من عمره ـــ قد قبض مطمئناً على صولجان الملك بين يديه الصغيرتين الشرهتين .

وهذه هى الحالة التى كانت عليها مصر فى خريف العام الثامن والأربعين قبل الميلاد . وكان الوقت مساء . وكان قيصر جالساً فى بهو القصر يرقب الحركة الصاخبة فى ميناء يونوستوس (ومعناها المرفأ السعيد) وإذا بضجيج يسمع بغتة عند بوابة القصر وهرع خادم إلى قيصر وهو يقول : إن سائحاً من الشرق قد

وصل الساعة يا مولاى وإن لديه لصرة من المنسوجات النادرة يريد أن يعرضها على مولاى .

ــ وأين هو ؟

ــ إن حارس البوابة لم يسمح له بالدخول يا مولاى .

وكان قيصر وهو حامى حمى الفنون ــ شديد الرغبة فى أن يرى تلك النفائس . فقد يتخذ منها هدية يهديها إلى زوجته كالبورنيا .

فقال للخادم ــ قل للحارس أن يأذن للرجل فى المجىء إلى حالا .

فمثل الرجل بين يدى قيصر ومعه صرته وقال :

سأعرض على مولاى تحفة نادرة لم ير مثلها من قبل . ثم أراح حمله فى حرص وعناية على الأرض ــ وبدأ يفك عقد الأربطة . ثم ابتسم وقال ــ وهو ينظر إلى ما انتاب قيصر من ذهول ــ أكنت أنا على حق يا مولاى ؟

ولكن قيصر لم ينطق . فقد عقد الذهول لسانه . وذلك لأن من بين تلك المنسوجات البالية قامت « كليوباطرة » بنت الملك المصرى . وهى تضحك ساخرة .

وقد أوتيت كليوباطرة هبة الدقة الزمانية . فكانت طوال حياتها تلعب دورها كأنها ممثلة بلغت فى فنها حد التمام . وقد أوتيت قدرة عجيبة على التنقل بين مختلف العلوم والفنون .

فكانت تشارك علماء عصرها فى الأبحاث الخاصة بالنقش وبصناعة التماثيل وبالشعر وباللاهوت وبسياسة الدولة وبالفلسفة وبالدين .

وكأن شخصيتها العظيمة قد حيكت من خيوط متعددة الألوان فكانت تتألق ذكاء . وكانت فاتنة فى محاسنها وكانت ذات حيلة ودهاء . وكانت قاسية وكانت محبة ودودة . وكانت مستهترة وكانت بارعة فى السياسة وكانت أحياناً تعدّ فى الكرماء .

وفوق ذلك كله فقد كان بها دائماً ظمأ شديد إلى السلطان الذى لا يحد .

وكانت تجن غراماً بالمجد كما كانت تجن غراماً بالرجال وفى الجملة ، كانت إحدى النابغات فى ذلك الفن الجميل فن الحياة ، وكانت تحارب الأقدار . ولا سلاح لها إلا جمالها وإلا ذكاءها . وقد كادت تنجح — كما سنرى — فى تحويل روما إلى إقليم من الأقاليم المصرية . وقد كانت نهاية حياتها مأساة من المآسي . وماذا كان يمكن أن تخبيء الأقدار غير هذه النهاية لهذه المخلوقة المخاطرة .

وكانت كليوباطرة تسمى معشوقة شعراء العالم كلهم . وكانت تسمى أيضاً مضيفة كل عربيد من الرجال . وفى الحق أن عصر كليوباطرة يمكن أن ينظر إليه كأيام الكرنفال فى تاريخ العالم .

وقد جاءت بنت بطليموس أوليت (ومعنى أوليت النافخ فى المزمار) يحف بها الطموح وحب المعالى . وراثة عن أسلافها القواد المقدونيين الذين هبطوا مصر مع جيش إسكندر الأكبر .

وأولئك البطالسة الذين حكموا مصر كانوا صنفاً من الناس قساة لا يعرفون الرحمة .

فبطليموس الأول المسمى سوتر Soter ومعناها « منقذ شعبه » كان اسماً على مسمى كما يقولون . وذلك بإطاحته عدداً من الرؤوس وإسالته أنهاراً من الدماء .

وبطليموس الثانى واسمه فيلادلفوس Philadelphus ومعناها « رجل الحب الأخوى » قتل اثنين من إخوته . وكان مغرماً ـ كما يحدثنا المؤرخون ـ بمن ساءت سيرتهن من النساء . وبالنبيذ الذى طال عليه القدم .

وبطليموس الرابع قتل أمه وقتل عمه .

وبطليموس السابع قتل جماعات من شعبه وذلك لكى يعلمهم كيف يحترمون مليكهم . وكأنما كانت الآلهة تسخر من هذا الرجل . فكان اسمه Euer Getes ومعناها « المحسن المتفضل » .

وأما بطليموس الثالث عشر والملقب « بالنافخ فى المزمار » وهو والد كليوباطرة فقد قتل بنته برينيس . ثم ألف مرثاة تتلى فى جنازتها .

وكان هؤلاء البطالسة يحبون سفك الدماء وكانوا كذلك أذكياء . وقد أصبحت الإسكندرية تحت حكمهم . وفى رعايتهم مركز العالم القديم فى الفنون والعلوم .

فقد ازدهرت فنون العمارة والنقش وصنع التماثيل كما سمت الموسيقى والآداب . وكما ازدهرت علوم الفلك والرياضات والفلسفة .

كل هذه الثقافات قد تلألأ نجمها فى الإسكندرية إلى جانب تلك الفنون — إن صحت التسمية — الأقل تلألؤاً وهى فنون التسميم والتقتيل .

والبطالسة — بحكم تسلطهم على أعظم عاصمة عالمية فى التاريخ القديم — قد برعوا فى اللغات . فكانوا يستطيعون أن ينقلوا ما يجول فى خواطرهم الآثمة الشريرة فى لغات متعددة .

وهكذا كان الميراث — ونصفه متحضر ونصفه متوحش — الذى ورثته تلك الأميرة المجازفة الطائشة والتى خرجت من ثنايا السجادة لتسأل قيصر معونته فى استرجاع عرشها .

وكانت تكلمه بلغة لاتينية متقنة فى نبرة إغريقية محببة . وكانت تتبل كلماتها بابتساماتها المغرية وحركاتها اللينة غير المستقرة ونكاتها البارعة . يرفرف فوق ذلك كله علم من شعرها الذهبى المتماوج .

ومن كان يستطيع أن يقاوم سحر هذه الفتاة المصرية الفاتنة

بنت العشرين ربيعاً . فأصبح قيصر ذلك الرجل العجوز الذى شهر بفرط صبوته . والذى كان معروفاً منذ سنين بأنه زوج كل امرأة . أصبح قيصر وقد وجد نفسه فى سن الثانية والخمسين وقد عاد إلى الصبا محباً . عنيف الحب مرة أخرى .

وقد أعاد قيصر كليوباطرة إلى عرشها . وأصبح واحداً من عبيدها يلبى ما يدب فى نفسها من دبيب المنى . وهو ممدوح العالم وقاهره .

وكانت البداية أن أغرت كليوباطرة قيصر بأن يتدخل بأصابعه الملطخة فى المسائل المصرية المرة المذاق . فأقنعته بأن يقتل بطليموس أخاها الصغير ومزاحمها على عرش مصر .

ثم دعته إلى نزهة نيلية فى زورقها الملوكى المذهب . فكان لقاء بين حبيبين دام من غروب الشمس إلى الفجر .

وإذ هما جالسان فى ذلك القصر العائم . الذى تدفعه مجاذيف خمسين من الأرقاء النوبيين كان يطوف حلم ذهبى من أحلام الفتح والغلبة بخاطر تلك الشابة المخاطرة الطموح وخاطر ذلك الجندى القديم .

فكان قيصر يحدوه الأمل أن يصبح — بمعاونة كليوباطرة — صاحب مصر وكانت كليوباطرة بدورها تأمل أن تصبح — بمساعدة قيصر — سيدة العالم .

ولكى يوثقا صلات حبهما . ولكى تضمن هى نجاح

مقاصدها . فقد ولدت له ولداً ووارث عرش .

وبينما هما يجتران أحلامهما الكامنة أصبح أعداء قيصر فى روما على أهبة للعمل وخلق القلاقل . فهددوا بخلعه . وبدأ أصحابه يتنكرون له ويجاهرونه بالعداوة والبغضاء . وقالوا : إنه لا يليق بقائدهم أن يعيش عيشة استرخاء فى مخدع أجنبية وأمامه فتوحاته القديمة يجب أن تدعم . وفتوحات جديدة يجب أن تصنع على عينه .

ولهذا نزع هذا العريس . عريس السِّحر والسَّحر. قلبه من بين ذراعى كليوباطرة . وأقلع — على كره منه — لا إلى روما بل إلى بنطوس فى آسيا الصغرى . فقد رأى مما تقضى به الحكمة أن يرجع إلى روما قائداً منتصراً . لا محباً منتصراً . وكان عليه أن يضم إلى بلاده كهدية جديدة بلاداً جديدة خاضعة . وقد نجح فى إخضاع بنطوس وأعلن انتصاره فى ثلاث كلمات سداها ولحمتها « الكبرياء » . وهى « جئت ورأيت وانتصرت » .

وقد تعلم — تحت رعاية كليوباطرة — أن يرى نفسه إلهاً وأن يفخر كما يفخر الآلهة .

وعند ما عاد إلى روما أرسل يستدعى كليوباطرة لتشاركه فخر انتصاره . وأسكنها قصراً على نهر التيبر . وبدأ — تستحثه سيدة النيل — يضع الخطط ويدبر المكائد لقلب الجمهورية الرومانية . وقطع على نفسه عهداً أنه يوم يصبح ملكاً سوف

يتزوج كليوباطرة زواجاً شرعياً ويجعلها مليكته . ثم ينقلان عاصمة إمبراطوريتهما من روما إلى الإسكندرية . وهنالك من تلك المدينة التى تقع من البحر المتوسط موقع القلب سوف يحكمان العالم .

هذا هو حلم قيصر . أو إن أردت الحقيقة هذا هو حلم كليوباطرة منعكساً فى أعمال قيصر . ذلك بأن أذكى رجل فى روما قد صار آلة فى يدى أذكى امرأة فى العالم . وأصبح مثل قيصر كمثل رجل نائم يتحرك بتأثير سحر من تولى تنويمه . وبدافع من تحريض كليوباطرة تحريضاً لا هوادة فيه . مستعينة بشبابها وبما يقابل هذا الشباب من هوى عنيف يتيم قلب قيصر . بدافع من هذا كله ظل قيصر يتنقل فى خطى وئيدة متلاحقة فى طريقه إلى عرش رومانى فجعل من نفسه قنصلا لمدة عشر سنوات ثم دكتاتوراً مدى حياته وأخيراً الابن الإلهى لجوبيتر إلى الأبد .

ثم أمر أن يُبنى هيكل له ولكليوباطرة . وأقام صورته وصورتها فى المحراب للعبادة العامة .

ونظر أصحابه نظرة خوف وذعر إلى هذا التحلل الأخلاقى يصاب به رجل عظيم بين ذراعى امرأة لا مبادئ لها .

وكتب شيشرون مرة يقول : إنى أحتقر هذه المرأة وعندى ما يبرر رأيى هذا . ولا أكاد أذكر وقاحتها حتى تنتابنى غصة . ذلك لأن هذه الوقاحة تهدد حرية الجمهورية الرومانية بالدمار

والفناء . وحذر شيشرون وقادة الجمهورية الآخرون قيصر مراراً من مكائد كليوباطرة ومن أطاعه هو .

ولكن قيصر ركب رأسه وسار وراء مشورات كليوباطرة وأمر بأن يقام له سرير إلهى فى المعبد . وأن يقام له عرش ذهبى فى مجلس الشيوخ .

ولم تبق إلا خطوة ضرورية أخيرة لتبلغ كليوباطرة غاية آمالها وهى أن يتوج قيصر تتويجاً رسمياً .

ثم جاء اليوم الخامس عشر من مارس عام ٤٤ قبل الميلاد وقد بلغت الثورة النفسية عندها أقصى حدودها ذلك لأنه كان مقرراً أن يتوج قيصر رسمياً فى ذلك اليوم. وأن تصبح كليوباطرة سيدة العالم . . . وفى إحدى محاولاتها لتسكين ما بها من هياج أمرت أن يعلق أحد أرقائها فى السقف ورأسه إلى أسفل . ثم ما لبثت — وقد هدأت أعصابها إلى حد ما بهذا العبث — أن جلست والقلق يساورها وهى تنتظر الأخبار الهامة تجيئها من مجلس الشيوخ .

وفى عصر ذلك اليوم جاءتها الأخبار أن الهدية قد قُدمت إلى قيصر . ولكن الهدية لم تكن التاج الموعود بل كانت تحية قوامها ثلاث وعشرون طعنة من خنجر .

وعادت كليوباطرة إلى مصر والحزن يملأ قلبها . وقد خاطرت كليوباطرة ففشلت . وقامرت فخسرت . ولكنها لم تلبث إلا

قليلا حتى ألقت أوراق حظها إلى القدر مرة أخرى . وكان مُلاعبها هذه المرة جندياً رومانياً آخر. جندياً شاباً . أحلى قداً . وأجمل شكلا وأصلب عوداً وأكثر تدلهاً . يجمع إلى ذلك كله بنوته إلى تلك الآلهة التى لا تعرف الاستقرار وهى آلهة الطموح وحب الرفعة . ذلكم هو مارك أنطوان .

وكان مارك أنطوان من جبابرة المقاتلين . وكان له عقل طفل وشهوة مارد جبار . وكان رجلا ولد ليبهر الأنظار برهة ثم يقتله فرط حبه للمعالى .

وكانت الملح والنوادر تتسابق على خاطره فيغدقها على الشعب تفكهة وتسلية . كما كانت جعبة خواطره ملأى بالتدابير التى تؤدى إلى استعبادهم .

وكانت تنقصه سلامة الحكم على الأشياء . وكان آية فى الكرم كما كان غاية فى القسوة .

وكان الجنود الذين تحت إمرته يعبدونه . فقد كان على مثالهم رجلا مغرقاً الإغراق كله فى المحاسن والمساوئ .

وحدث يوم طُرد هو وفرقته من روما أنه كان — كما يقول بلوتارك — مثالا يحتذى . وقدوة يقتدى بها جنوده . فقال لهم : إن من فارق حياة البذخ لا يجد صعوبة فى أن يشرب الماء الآسن وأن يقتات بالأعشاب وأن تكون فاكهة الصبير حلواه .

والحياة عند أنطوان كانت نكتة لاذعة كان يلقاها دائماً

بعاصفة من الضحك . وكان لا يعبأ بالرأى العام . وكان يقول: إن فلاسفتكم ينبئونكم كيف يجب أن يحيا الرجل حياته ولكنى أنا أنبئكم كيف يجب أن لا يحيا الرجل حياته . وكان يهمل طوال حياته بدافع من الإغراء . لا من التروية والتفكير . فبدافع من الإغراء اهدى إلى طباخه مرة قطعة أرض واسعة ـ ولا تنس أن قطعة الأرض هذه كانت من أملاك رجل آخر ـ استولى عليها بقوة السلاح . وكانت هذه الهدية مكافأة لطباخه على عشاء فاخر قام بإعداده .

وبدافع من الإغراء أيضاً أمر بذبح ألفين من الرومانيين وفيهم شيشرون. ذلك لأن هؤلاء الرجال وقفوا يعارضون آراءه السياسية.

وفى وقت حدوث هذه المذبحة الرومانية (عام ٤٣ ق . م) ألف أنطوان باتفاقه مع أوكتافيان وليبيدوس حكومة دكتاتورية ثلاثية . وهى حكم مطلق يقوم به ثلاثة من رجال العصابات المستهترين الأمجاد . . . وقد أقروا فيما بينهم عهداً بالصداقة الأبدية . وكل واحد من الثلاثة أمضى فيما بينه وبين نفسه أن يطعن زميليه من الخلف فى أول فرصة تسنح .

وقد قسموا العالم فيما بينهم . ولكى يتمكنوا من جمع المال الذى يستديمون به جريمتهم . سموا العهد الذى بينهم اسماً جمع بين حلاوة النغم وبين حسن الأداء وهو : « عهد استتباب السلام الرومانى » .

وقد نُدب أنطوان ليسافر إلى ممالك الشرق . وفى هذا السفر تق كليوباطرة . وأصبح كما كان قيصر من قبل عبدها المدّله. بهذا الولد الهائل الجثة والقادر على قهر العالم وتلويخه . والعاجز عن مقاومة دواعى الهوى كان قد وصل من فوره إلى طرسوس . فدعا كليوباطرة لتجىء إلى تلك المدينة ليبحثا معاً مسائل سياسية ومالية ذات فائدة مشتركة .

فأقلعت سفينة كليوباطرة من الإسكندرية وألقت مرساها ومرسى سفن أسطولها فى مصب نهر Cydnus وجلس أنطوان على المنبر . فى ساحة السوق وانتظر وصول الجميلة الخاضعة المتوسلة . ولكن كليوباطرة لم تكن تعرف التوسل والخنوع فأرسلت إليه تقول : إذا أردت أن ترانى فيجب أن تجىء ضيفاً علىّ فى زورق .

فقبل أنطوان الدعوة وألفى نفسه فى حديقة مسحورة . فعذارى البحر ورسل الغرام والصبايا الغانيات كن يرقصن على سطح الزورق المفروش بالورد بينما كان فتيات من النافخات فى المزمار . يلعبن بالقلوب بموسيقاهن الناعمة . فى جو تغطيه سحابة من بخور عطرى يسحب على الحواس ظلا لطيفاً من النسيان .

ولما رأى أنطوان كليوباطرة فى هذا الإطار السحرى نسى كل شىء . فقد جلست تحت مظلة زينت بخيوط من حرير

وارتدت ملابس تكاد تشف عما تحتها . وحيّت أنطوان بابتسامة تشف عن وداعة ماكرة .

وبعد أن تبادلا ما تقضى به المظاهر الشكلية نزلت به إلى غرفة المائدة حيث مدت مائدة حفلت بأشهى المآكل المصرية . وكانت الصحاف من الذهب والفضة وكانت الفرش من المخمل والكؤوس مطعمة بالأحجار الكريمة .

فلما ذُهل أنطوان لفخامة الوليمة أعلنت إليه كليوباطرة أن هذا كله لم يكن إلا شيئاً تافهاً لا قيمة له . ثم أمرت — وكأن هذا من وحى الساعة — بأن يهدى إليه كل ما كان فى الوليمة من الصحاف والكؤوس والفرش والنفائس .

وردّ أنطوان هدية كليوباطرة بأحسن منها . ذلك بأن أهدى إليها قلبه وزاد فأهدى إليها آماله وحياته. وقد فعل هذا بدافع من استسلامه لدواعى الطبيعة .

ولم يكن يعرف شيئا عن آداب البلاط الملوكى فقد كان جندياً خشن الطباع . كما كان محباً غير مصقول .

وقد ذهلت كليوباطرة أول الأمر مما يصفه بلوتارك «بالخشونة القروية » ثم لم تلبث إلا قليلا — وهى الممثلة البارعة — حتى وفقت بين طباعها وطباعه .

ولما عرفت أن تهكم أنطوان وسخريته كانا بعيدين عن التورية والكناية وأنهما أقرب إلى مزاج العسكرى منهما إلى مزاج نديم

الملوك وصاحبهم استساغت — مماشاة لصاحبها — ذلك اللون من التهكم ولم تر فى ذلك غضاضة . وتتالت المآدب الملكية . وكل واحدة منها تفوق سابقتها فخامة وبذخاً . وكان أنطوان يحاول عبثاً أن يجارى كليوباطرة فى مآدبها . ولكن مآدبه كانت لا طعم لها ولا ذوق . ذلك بأنها كانت من وحى عقل رومانى جامد .

وحدث ذات ليلة أن قال لكليوباطرة — معتذراً لها — إن مأدبته الأخيرة قد كلفته ما يساوى ٢٤٠٠٠ جنيه من عملة زماننا هذا . ثم زاد فقال : ولن يستطيع أى فرد أن ينفق أكثر من هذا على مأدبة واحدة . فضحكت كليوباطرة وقالت : بل إنى لأستطيع ؛ فإن مأدبتى القادمة سوف تكلفنى ٢٠٠,٠٠٠ جنيه ، فقال أنطوان : إنك تمزحين يا كليوباطرة فإن ذلك غير مستطاع .

فقالت — هل تراهن ؟

قال — نعم .

فراهنته كليوباطرة على أن تكون المأدبة الموعودة فى اليوم التالى .

وفى الساعة الموعودة وصل أنطوان إلى زورق الملكة . وكانت المأدبة أقل من سابقاتها بذخاً . فقال صاحبنا مناجياً نفسه . لقد كسبت الرهان ثم رفع صوته قائلا : إننى أقدر تقديراً أولياً أن نفقات هذه المأدبة لا تتجاوز جزءاً من الخمسين مما قدرته وأنت فخورة مزهوة .

فابتسمت كليوباطرة وقالت : انتظر فإن هذا كله ليس سوى البداية . ثم صفقت بيديها وأمرت واحداً من عبيدها أن يجيئها بخوانها وعليه كأس صغيرة فيها خل .

فنظر أنطوان إليها ملياً وقال مناجياً نفسه : ما الذى هى مقدمة عليه الآن ؟

وقد زاد عجبه لما رأى . ذلك لأن الملكة قد نزعت من قرطها لؤلؤة . وقالت فى غير مبالاة وهى ترمى اللؤلؤة فى الخل . إن هذه اللؤلؤة الحقيرة يبلغ ثمنها ١٠٠,٠٠٠ جنيه .

ولما ذابت اللؤلؤة وحلت . رشفت قطراتها فى تدلل وتظرف وقالت : والآن فإنى على استعداد لأن أذيب اللؤلؤة الثانية فأمسك أنطوان بيدها وقال : كفى . . . فقد كسبت الرهان . . .

ولم تكن كليوباترة بالغبية . وكان لجنونها خطة مدبرة . وكان لديها سبب عملى يبرر ظهورها بمظهر البذخ لتدل على ثرائها . ذلك بأنها كانت تواقة لأن تجعل أنطوان يحس ويلمس سعة مواردها المالية التى يستطيع أن يتخذها سنداً له فى كفاحه لبسط سيادته على روما .

وكانت رغبتها الوحيدة — وقد مات قيصر — أن توقع العداوة والبغضاء بين أنطوان وأوكتافيان . ذلك لأن لبيدوس وهو ثالث الثلاثة الدكتاتوريين لم يكن شيئاً يحسب له حساب .

وظنت أنها بمالها وثرائها وبحسن قيادة أنطوان يمكن أن يخلع

أوكتافيان فيجلسا معاً على العرش الرومانى وتبقى كليوباطرة سيدة على العالم . . .

فلما استخفها تجدد حلمها أقلعت إلى الإسكندرية حاملة معها وعداً بزيارة قريبة من انطوان .

أما أنطوان فقد كان به ظمأ شديد لأن يرى بعينيه أموال مصر وثراء مصر . وليستمتع مرة أخرى بقبلات ساحرة النيل الصغيرة ذات الشعر الذهبى .

من أجل هذا لم ين عن اللحاق بالملكة فى الإسكندرية . واستقبل هناك استقبال الملوك وعاش عيشة كلها متعة وكلها ترف

وقال بلوتارك قد يكون من نافلة القول التى لا نهاية لها أن نعدد نزوات انطوان وكليوباطرة فى الإسكندرية فمن تمثيل هزلى إلى حفلات تنكرية إلى حفلات خمر إلى نزهات ورحلات إلى حفلات راقصة إلى سباق عربات إلى غشيان حوانيت الخمارين متخفيين فى زى الفلاحين تارة وفى زى العبيد تارة أخرى .

وطالما انسلوا إلى شوارع المدينة المظلمة يقرعون الأبواب . فإذا فتح الناس أبوابهم ألفوهما يضحكان . وقد نالا نصيبهما الوافى من الضرب مرة أو مرتين من بعض القوم الذين لا يعرفون من هما .

وكانت صحيفة كليوباطرة البيضاء النقية التى يشع منها المرح تقابلها صحيفة أنطوان التى تشع سماجة وثقل ظل .

ومن نوادر أنطوان أنه كان يصطاد السمك يوماً ما وكان حظه غير موات فاستأجر غواصاً ينزل إلى أعماق الماء ويضع سمكاً غضاً فى صنارته . وكان التصفيق يدوى فى أذنيه كلما اصطاد سمكة فى إثر أخرى وكانت كليوباطرة تبالغ فى الإعجاب بحظه . ولشد ما دهش النظارة عند ما رفع خيطه وفيه سمكة مقلوّة . وكانت هذه واحدة من لطمات كليوباطرة . . . فقد أرادت أن تكشف عن حيلته فأمرت عبداً من عبيدها أن يغوص تحت سطح الماء وأن يضع فى صنارة أنطوان تلك السمكة المقلوّة . ثم التفتت إلى صاحبها وقد امتقع لونه من أثر الفضيحة وقالت : اترك صيد السمك لنا نحن المصريين الفقراء . . . أما صيدكم أنتم معشر الأبطال فمدن وأقاليم وإمبراطوريات . . .

ولكن أنطوان كان قد تيمه الحب فنسى مدائنه وأقاليمه وإمبراطورياته فبدد ثرواته العديدة من الطموح والقوة ومن الوقت وهو أغلاها قيمة وأكثرها وزناً .

وإذ هو يعيش عيشة التسكع فى مخدع مصرية كان أوكتافيان يثبت دعائم سيطرته فى روما .

وكان أوكتافيان — وهو ابن أخى قيصر — مزاحماً سياسياً لايمكن تجاهل أمره وكان ضعيف البنية ولكنه أوتى عقلا قوياً. وكان محيّاه الشاحب ووجهه المرقّط بآثار الجدرى وأسنانه النخرة لا تدل أية دلالة على الوحش الذى يحتويه إهابه . وهو

يكشر عن أنيابه . وقد سمى « منفـذ أحكام الإعدام» وذلك لكثرة من عذب وصلب من ضحاياه العديدة .
وكان قاسى القلب . يبالغ فى تقليب الأمور وكان فطناً كان متجهم الوجه . وكان يكره أن يرى ضوء الشمس وقلما استحم أو اغتسل .
وكان مخلوقاً قمئاً يعيش فى مستنقع من القاذورات والأوحال الجسمية والعقلية .
ذلك هو الخصم الذى يكافح أنطوان ويناضله مزاحماً إياه على العرش الرومانى . وقد بدأ يتحسس طريقه إلى القمة فى مداجاة وخبث . وخطوة فى أثر خطوة .
وكان تواقاً إلى خلق أسباب العراك مع أنطوان . وقد وجد أسباب هذا العراك ناضجة معدة . فقد كانت أخته أوكتافيا زوجة لأنطوان . فوجد السبيل ميسراً أمامه باتهام أنطوان بهجره لزوجته وافتتانه بامرأة أجنبية . وأرسل أوكتافيان اخته — ولو أنه كان يعلم أن هذا عبث لا جدوى فيه ولا غناء — أرسلها لتحاج زوجها فى أن يعود إلى بيته وعائلته .
فلما عادت أوكتافيا إلى روما صفر اليدين اقتحم أخوها دار مجلس الشيوخ مشّهراً بذلك الخائن المرتد عن الدين . وذلك الوحش السكير الذى وعد تلك الفاجرة المصرية بالإمبراطورية الرومانية ثمناً لحبها .

فأقرّه الشيوخ الرومانيون على أن هذا شيئاً لا يحتمل. وأعد أسطول للاقلاع لمحاربة أنطوان . وأعد هذا بدوره — وقد ثار ثائره — اسطولا لمحاربة أوكتافيان . ثم طلق أوكتافيا وتزوج كليوباطرة . وأعلن نفسه محرراً لروما . (كلما نشبت الحرب الأهلية بين ثائرين قديمين سمى كلاهما نفسه منقذ بلاده) وكان أنطوان واثقاً كل الثقة من كسبه للحرب حتى لقد احتفل بانتصاره قبل أن يبدأ القتال .

وكان سفر أسطوله أشبه بصورة تمثيلية منه بواقعة صحيحة وبهذه الروح ذاتها . تلك الروح التمثيلية صحبت كليوباطرة — ومعها فرقة من جنودها — أنطوان إلى موقعة أكتيوم .

وكان مستقر آمالهما عند النجوم . فكانا يأملان أنهما عما قريب سوف يصبحان الحاكمين المسيطرين على الدنيا بأجمعها . ولن يكلفهما هذا إلا عملية حربية قصيرة المدى . فأسطولهما أكبر وأقوى وقدجهز تجهيزاً أحسن مما جهز به أسطول أوكتافيان وأعد أنطوان نفسه للقتال بسكرة طال مداها . ففى الصباح الباكر من يوم المعركة أذهلته الخمر عن أمره وفى أصيل ذلك اليوم أذهله اليأس عن أمره .

وقد حدث ما لم يكن متوقعاً . فغرقت السفن الكبرى من أسطول أنطوان — واحدة إثر أخرى — أمام السفن التى لا تدانيها مناعة من سفن أوكتافيان .

وقد خلّفته كليوباطرة يحارب وحده عند ما حمى وطيس المعركة وفى تلك اللحظة ذاتها فارقت أنطوان شجاعته . فقد سقط الجندى من عليا سمائه إلى وهدة الحب وأسفل دركاته .

ولم يلبث أن هجر رجاله الذين باعوا أرواحهم بيع السماح ذودا عن حياضه . وتبع كليوباطرة إلى الإسكندرية .

وكان فى هذا القضاء عليه . ذلك لأن العالم قد تخلى عن أنطوان وقد خلا مكانه فى مأدبة الحياة . وكان كل الناس يحتقرون ذلك البطل المنهزم « ذلك البطل الذى سار تحت راية قميص امرأة » . حتى كليوباطرة قد احتقرته . فقد كانت تعرف كيف تهتف للبطل المنتصر . ولكنها لم تكن تعرف كيف تحمس للقتال بطلا منهزماً . وقد غادرها أنطوان كما غادرها قيصر من قبل . ولم تكن هى فى حاجة إليه . فإن نجمه قد أفل .

ولكن نجمها هى لم يخبُ بعد . ومطمحها فى أن تصبح إمبراطورة روما لا يزال تحقيقه ممكناً . إن لم تكن كزوجة لقيصر أو لأنطوان فلتكن كزوجة لأوكتافيان . وقد يقتل أنطوان نفسه وهو انطلاق حسن . . . وقد يجدها أوكتافيان جميلة نادمة مستعدة لأن تكفر عن خطيئاتها . وكليوباطرة . . . ماذا يهمها من يكون ضجيعها . ما دامت تجلس هى على العرش كسيدة تسيطر على العالم .

وكان فى عمليتها الحسابية الأخيرة غلطتان — أفول نجم جمالها . وعدم استجابة قلب أوكتافيان لدواعى الحب .

أما أنطوان فقد قتل نفسه وأما أوكتافيان فقد جاء ليراها . فجاء ورأى وبقى غير مغلوب على أمره . وفى الحق لقد عرض عليها أن يعود بها إلى روما . ولكن لا كزوجته بل كأسيرته .

ولم تكن فى نظره إلا امرأة أسرت فى الحرب . لا أميرة تصلح للجلوس للحكم إلى جانبه .

فابتسمت كليوباطرة وهو يحدثها . ووعدت بأن تكون عند رغباته . وأجمعت أمرها على أن تخضع نفسها للدغة حية . ذلك أولى لها من أن تكون تحت رحمة أوكتافيان .

ولو أنها كانت أسيرة أوكتافيان فإنها قد دبرت أن تهرّب إلى مخدعها حية من الحيات فى إحدى سلال الفاكهة .

وهكذا لقيت تلك الأميرة التى ألحت عليها الرغبة فى الحكم والسلطان . وهكذا لقيت تلك الفانية التى ودت أن تحكم العالم وأن تخضعه نصيبها المقسوم من المجد الفانى .

ثم أولمت تلك الجميلة الفاتنة وليمة ملوكية للديدان الجائعة...

جان دارك

١٤١٢ — ١٤٣١

حدث ذات مرة فى يوم عيد يقع فى منتصف الصيف . وجمهور الأتقياء الصالحين صائمون . وقد اقتربت مسافة البعد بين الأرض والسماء . حدث يومذاك أن فتاة فلاحة من قرية « دومريمى » سمعت صوتاً يناديها ويخرجها من صمتها . وكان هذا الصوت صوت زعيم الملائكة ميكائيل وقد قال لها : كونى فتاة صالحة يا چان . وأكثرى من تردادك إلى الكنيسة .

فذعرت الفتاة ولكنها لم تدهش . ذلك لأن أهلها قالوا لها : إن الملائكة يخاطبون الناس أحياناً . فلا غرابة فى أن يكلموها كما يكلمون الناس . وليس الملاك ميكائيل بغريب عنها . فقد عرفت قصته وهى فى حجر أمها . وطالما رأت صورته على جدار الكنيسة . فمن الطبيعى إذن — كما أنبأها قسيس القرية — أن يأمرها بالصلاح وبأن تؤدى فروض الصلاة .

وطوت الفتاة سرها بين الضلوع خوف أن يضحك الناس منها وأن يهزأ بها أهلها .

وفضلا عن ذلك فقد كانت آنئذ فتاة صغيرة لا تستطيع

فهم لغة الملائكة .

ولذلك فقد استكانت إلى الدعة وعاشت فى عالمها المتصل بعالم السماء .

وبعد زمن قصير تراءت لعينى چان صورتا القديستين مرجريت وكاترين مع صورة الملاك ميكائيل وأصبحت تلك الصور الثلاث من الصور المألوفة فى مخيلتها .

وكان عمر چان يوم لقيت الملائكة لأول مرة اثنى عشر عاماً . وكانت أطيافهم تكلمها كل يوم . وكثيراً ما تحدثوا إليها أكثر من مرة فى اليوم الواحد .

وكانت رؤياها لهم رؤيا واضحة . وكانت تسمع أصواتهم فى وضوح بالغ كلما كانت أجراس الكنيسة تدق .

وكانوا أول أمرهم يكلمونها فى مسائل عادية . ولكن الملاك ميكائيل جاءها يوماً وقال لها إنه يرثى لحال الدولة الفرنسية ثم قال لها : — أيها البنت الآلهية — وهذا هو الاسم الذى كان يطلقه عليها — لقد آن الأوان لأن تهاجرى من قريتك وأن تعاونى فرنسا على النهوض من كبوتها .

واستحال شكها الآن يقيناً . فالله سبحانه قد اختارها لإنقاذ بلادها من الغزاة الانجليز .

وكان الناس فى القرن الخامس عشر ليتن منهم إلا من كلمته الملائكة . أو رأى الذين كلمتهم الملائكة .

وكان هناك قسيس اسمه « ريشار » يترجم — كما كان يقول — الأصوات التى كانت تهبط مباشرة من السماء . وكان بذلك يحدث فى باريس موجة من الجنون بالتبشير الأسطورى . وكان هناك راهب من رهبان دير الكرمل اسمه « توماس كونيكتا » يقول إنه يتلقى وحيه من ملائكة السماء . وكان يلقى عظاته فى بلجيكا وفرنسا وكان مستمعوه يعدّون بالألوف فى كل مرة . وكانت هناك امرأة شابة فى بريتانى اسمها « بييريت » كانت تدهش مواطنيها بقولها إنها كانت على صلة دائمة بيسوع المسيح . وكان هناك راع من رعاة الغنم الفرنسيين قيل إنه كان يتفصد بدل العرق دماً فى أيام الأعياد المقدسة .

وكان لكل إقليم فى فرنسا رجاله الهستيريون ونساؤه الهستيريات الذين كانوا يعتقدون . ويجعلون غيرهم يعتقد أنهم رأوا . وأنهم كلموا أرواحاً سماوية .

وهذه القصص التى تقص أنباء المعجزات السماوية هى التى غذّت خيال چان دارك فى طفولتها . فهى لم تتعلم القراءة والكتابة أبداً . وكل علمها مكوّن من مجموعة من الأساطير والخرافات التى أدخل فى روعها أن تصدقها وتؤمن بها .

وقد ولدت چان — كما يقول المؤرخ الفرنسى «ميشليه» تحت جدران الكنيسة . وهدهدتها أمها على صوت أجراس الكنيسة وأرضعتها ألبان الأساطير حتى أصبحت هى أسطورة من

وكان بيت والدها يقع فى مكان قريب من غابة يسود الاعتقاد بأن الجن تسكنها .

وكانت چان ترى – بعين خيالها – فى السحاب المسخر بين السماء والأرض ملائكة تحملهم مركباتهم .

وهناك فى الأفق البعيد تقوم جبال « الفوج » وهى ترتفع بقممها إلى ما فوق السحاب حتى لتكاد تعرج إلى عرش الله .

وتمنت چان لو استطاعت أن تصعد إلى تلك القمم التى تؤدى إلى السموات العلا.

وكثيراً ما جلست على عتبة بيتها تسبح فى عالم من الأحلام وهى تصغى إلى الأصوات التى تأتى من ناحية القرية . وهى تقول لنفسها : أليست هذه الأصوات الصاخبة الغامضة المضطربة هى أصوات الملائكة وهم يتحدثون إليها ؟

وكان خيالها الطفل يوحى إليها أن الحجاب الحاجز بين هذه الدنيا وبين العالم الآخر هو حجاب رقيق وأن فى قدرة الملائكة والناس أن يختلطوا . وأن يتحدث بعضهم إلى بعض كما يتحدث الجيران المتجاورون .

وعلى ذلك فلا غرابة أن تسمع ملكاً من الملائكة يناديك من عليا السماء . كما لا غرابة أن تسمع أمك تناديك من المطبخ .

ولا أثر للمعجزة فى هذا – فى رأى چان دارك – بل

المعجزة كل المعجزة أن تقول لها إن الملائكة لا يكلمون الأولاد الاتقياء ممن تحملهم هذه الأرض .

ومجمل القول أن « چان دارك » قد عاشت فى عالم كان من المستحيل عليها أن تميز بين الواقع وغير الواقع ، فالملائكة قادرون على أن يهبطوا إليها على الأرض . وهى ــ أحياناً ــ قادرة على أن تعرج إليهم فى السماء .

فوجودها كان وجوداً سماوياً فيه جمال السماء . لولا ذلك الجيش من الغزاة الإنجليز الذى يعكر صفو هذا الجمال . فقد كان الإنجليز يجتاحون البلاد الفرنسية . وكان الجنود الإنجليز يحصدون ما يزرعه الفلاحون الفرنسيون . وكانوا يحرقون ديارهم وينهبون ماشيتهم .

وكانت « چان دارك » تصحو من نومها أحياناً على صرخات الهاربين من ديارهم من أهل القرى الأخرى . وقد اضطر أهلها هى مرة أن يهربوا بأنفسهم من وجه الغزاة . فلما عادوا ألفوا قريتهم منهوبة ووجدوا بيتهم مسروقاً . ووجدوا الكنيسة وقد أحاط بها اللهب من كل مكان .

وكانت فى حياة « چان دارك » . أو « فتاة دومريمى » كما كانت تسمى حقيقتان بارزتان ــ تقوى القديسين فى السماء . وما أحاط بفرنسا من شر وويل . وكانت فرنسا عزيزة على القديسين ــ أو هكذا شاءت أمها أن تدخل ذلك فى روعها يوماً

بعد يوم ــ وأن القديسين يودون أن يفعلوا كل ما يقدرون عليه لطرد « الإنجليز الغاصبين » من أرض فرنسا المقدسة .

وكانت هناك نبوّة أن فتاة صغيرة عذراء سوف تصبح « منقذة فرنسا » فقد أنبأ بذلك الساحر « مرلين » وقد قالت ذلك المرأة الصالحة « ماري دافينيون » التي كانت تكلم الملائكة. والتي كانت تكلمها الملائكة .

وخيّل إلى جان دارك. ثم استحال ذلك الخيال إلى اقتناع كامل أنها هي الفتاة العذراء التي كتب لها أن يكون خلاص فرنسا على يديها . وأن الأوان قد آن لأن تنبئ أهلها بذلك .

وقال لها الملاك ميكائيل : يجب أن تغادري دارك وأهلك وأحبابك وأصحابك وأن ترحلي لتكوني في خدمة مليكك .

فلما أخبرت أهلها بما اعتزمته من أمر . أصر أبوها أن تبقى في بيتها . ذلك لأنه رأى في المنام رؤى مزعجة . وجاءته في تلك الرؤى نذر مشئومة بأن فتاته سوف تسير في صحبة الجنود . ومعنى هذه الصحبة في نظر عقل الرجل هو حياة الدنس والعار . ثم قال لها: إذا جرؤت على ترك هذا البيت فإني لا بد ملقيك في اليم . . .

ثم قامت في سبيل رحيلها عقبة أخرى . ذلك أن أباها قد اعتزم أن يزوجها من واحد من أهل البلدة الفلاحين . بل زاد على ذلك بأن دبر وإياه «قضية الحلف بالوعد» ترفع عليها أمام القضاء .

ولكنها تحدّت والدها وردت يد طلب زواجها . وأقنعت قضاتها بأنها لم تعد أحداً بالزواج مطلقاً . وقالت لهم : إنى قد نذرت نفسى – بوحى من السماء – لحياة الطهر ولواجب إنقاذ بلادى وتخليصها من يد الغاصب .

ولكن ما السبيل إلى القيام بهذا الواجب . وكانت فى حيرة من الأمر فلجأت إلى القديسين من حماتها وقالت : لست أنا إلا فتاة فقيرة لا أستطيع أن أركب الخيل . ولا قدرة لى على القتال . فكيف أستطيع إذن أن أعين بلادى ؟

فنصح لها القديس ميكائيل أن تذهب إلى « روبرت دى بودريكور » سيد مدينة « فوكولير » وصاحب قرية « دومريمى » وقال لها زعيم الملائكة إن هذا الرجل يستطيع أن يمدها بالرجال والعتاد لتسافر إلى « شينون » حيث يعيش ولى العهد شارل فى قصره عيشة الوجل . أو عيشة مليك غير متوج فى بلد مقهور .

وذهبت « چان دارك » إلى مدينة « فوكولير » فى رعاية ابن عم لها اسمه« دوران لاسوا » . وهو الوحيد من أهلها الذى صدّقها. أما أهلها الباقون فلم يصدقوها ذلك بأنهم كانوا منها جدّ قريبين . وكيف تصدق أنت أن ملاكاً من الملائكة يمكن أن يقشر البطاطس فى مطبخك .

ولم ير فيها أهلها وإخوتها شيئاً يدل على طبيعة آلهية . ولم تكن فى نظرهم إلا فتاة مطبخ تولتّها لوثة من حلم سخيف .

وكانت فى نظر « بودريكور » « مخاطرة صغيرة مجنونة » . ولم يكن مؤمناً برسالتها التى خصت بها نفسها .

وكيف يصدق أن فتاة ساذجة . من فتيات الريف بلهجة حديثها الريفية وملامحها التى تقرأ فيها الغلظة والخشونة يمكن أن تكون المنقذة للشعب الفرنسي ؟

ولكن عامة القوم كانوا يرون فيها غير هذا الرأى . وكانوا يرون أن لا غرابة فى أن ينبغ من بين الطبقة الدنيا نابغ يسعى فى إنقاذ بلاده .

وكان قومها من مسيحيي القرون الوسطى . فكانوا يصدقونها فيما ترويه عن الملائكة لا لسبب من الأسباب غير أن الرواية لا تقبل التصديق . . .

ثم اشتروا لها حصاناً . وملابس جندى . وأعدوا لها حرساً من الرجال المسلحين . ثم أهدى إليها « بودريكور » — مدفوعاً بحماسة القوم — سيفاً .

وهكذا سارت « چان دارك » فى ربيع عام ١٤٢٩ . وكانت فى السابعة عشرة من عمرها . مصحوبة بحرسها من الرجال . وهى فى ملابس الرجال . وهكذا بدأت مهمتها لتشفى فرنسا من جراحها وآلامها .

وكان هدفها الأول أن تصل إلى قصر ولى العهد فى « شينون » وكان ولى العهد شارل رجلا متذبذباً منهوك القوى . غريراً ساذجاً .

وكان مهرجاً غبياً يؤمن بالخرافات .

ولما أذن لها فى الدخول إلى حضرته . ألفته محاطاً بجماعة من حاشيته . ولم تلق صعوبة فى تمييزه ذلك بأنه كان أقبح من كان فى القصر وجهاً . وتقدمت إليه فى خشوع يليق بمكانته ومكانتها. وقالت له : إنى يا مولاى اللطيف يا ولى العهد فتاة اسمها چان الطاهرة . وقد أراد الله جلت قدرته — موحياً إلىّ بذلك — أن تتوج ملكاً على فرنسا .

فلقيت كلمات چان دارك من ولى العهد أذناً صاغية . ذلك لأنه كان يؤمن الإيمان كله بالمعجزات وبالسحر الذى كان شائعاً فى القرن الخامس عشر . وقد أخبره بذلك أيضاً الساحران « ميرلن » و « مارى دافينون » إذ قالا له إن فتاة عذراء ستنقذ فرنسا .

وها هى المنقذة الموعودة تقف إلى جانبه . تقوده إلى النصر وإلى التاج وسلاحها وصية من وصايا الله .

وقد أعلنت چان دارك أنه اتباعاً لأوامر الملائكة . فإن عليها الآن أن تقوم بواجبين مقدسين : أولهما تخليص مدينة « أورليانس » من الإنجليز الغاصبين . وأن تقود ولى العهد إلى مدينة « ريمس » فتمسحه بالزيت المقدس الذى استعمل فى تتويج « الملك كلوفس » وهو الملك المسيحى المؤسس للعائلة المالكة فى فرنسا .

فصادف هذا قبولا عند ولى العهد . وأقامها قائداً عاماً

للجيش الصغير الذى استطاع أن يجمعه تحت رايته .

ولم يكن بالشيء الغريب فى تلك الأيام أن تحارب النساء إلى جانب الرجال فقد كان عدد الجريحات من النساء فى معركة « أمينس » ثلاثين : وقلما خلا حصار فى القرون الوسطى من نبوغ امرأة فى أعمال البطولة . ولذلك كان من الطبيعى أن يقبل « شارل » خدمات « چان دارك » . وتذكّر بطلات « العهد القديم » وهن « دبورة . وهوديت . وياعيل » اللائى قهرن — بعون الله — أعداء إسرائيل .

وها هى بنيّة جديدة . أوحى إليها من السماء أن تقهر أعداء فرنسا . وكان يتقدمها الملاك ميكائيل وكان على جانبيها القديستان « كاترين ومرجريت » .

وولى العهد اليوم قادر — بمعاونة تلك الفتاة الملهمة — على أن يطرد الغاصبين من بلاده .

ثم أعد لها جيشاً قوامه ٨٠٠٠ جندى وهو جيش كثير العدد فى حساب تلك الأيام . فخرجت تناوئ الإنجليز الذين كانوا يحاصرون مدينة « أورليانس » .

وانظر الآن إلى تلك الفتاة الريفية الأمية الملهمة . وهى قائمة تؤدى فروض مخاطرتها المقدسة فى عدة من سلاحها الأبيض ، وهى تسير على رأس فرقتها ممتطية حصاناً أسود . وهى تحمل فى يديها علماً أبيض رسمت فى رقعته صور الملائكة والقديسين .

ونقشت على حواشيه « زهرة الزنبق » وهى شعار فرنسا القديم .

وقال أحد معاصريها . إن الشعب والجنود بل الحيوانات قد عرفوا رسولا من رسل الله .

وكتب « جى دى لافال » يقول: رأيتها تركب حصانها الأسود الكبير . وهو يصهل صهيلا مزعجاً ويستعصى عليها . فقالت: سيروا به إلى الصليب فى الكنيسة القريبة . وسرعان ما هدأت ثائرة الحصان فامتطته وسار بها دون أن يتحرك وكأنه قد سحر . . .

وكانت « چان دارك » معوّذة بتعويذة من ملاك محارب هبط من السماء ومع ذلك فلم تكن هى بطبيعتها محاربة . وكانت تفضل — وكان ذلك ممكناً — أن تطرد الإنكليز من فرنسا . بلا حرب ولا قتال . وقد نذرت أن لا تقتل بسيفها أحداً .

فلما وصلت إلى « أورليانس » أملت خطاباً وجهته إلى الإنجليز تطلب فيه إليهم فى كلمات بسيطة جريئة أن يخرجوا . وقالت لهم: إنى أسألكم باسم ملك السموات أن تخرجوا . . .

والإنجليز لم يصغوا — بالطبع — إلى بلاغها النهائى . وأعدوا أنفسهم ليلاقوا هجومها الذى سجله التاريخ باسم موقعة «أورليانس».

ولم يكن انتصار « چان دارك » على الإنجليز شيئاً خارقاً للطبيعة إذ كان قوام جيشهم ألفين من الجنود تحت قيادة القائد تاليوت . وقد كان غبياً على الرغم من شجاعته . وكان هذا

الجيش يضم عدداً قليلا من الجنود الفرنسيين .

وكان هذا الجيش الصغير موزعاً على القلاع العديدة التى تحيط بالمدينة . ولم تكن بين تلك القوات المبعثرة التى تحاصر المدينة أية وسيلة من وسائل الاتصال . فكان أمراً سهلا على چان دارك » أن تدخل المدينة « بجيش المنقذين » . . .

وكان الإنجليز والفرنسيون ينظرون إلى هذا الجيش كأنه جيش أرسل من السماء . ولم تكن « چان دارك » قائدة ذلك الجيش . بل كان قائده زعيم الملائكة ميكائيل .

وكانت نتيجة لازمة متوقعة أن ينهزم الإنجليز قبل حدوث المذبحة على يد تلك المحاربة الهائلة التى هبطت من السموات العلا لتخرجهم من أرض فرنسا .

وكان الجنود الفرنسيون كما كان الجنود الإنجليز أقواماً من الأوغاد ذلك لأن الجندية فى القرن الخامس عشر لم تكن صناعة الأقوام المهذبين .

وجنود ذلك الزمن لم يكونوا يعرفون فى الحرب معنى المجد . وكانوا ينظرون إلى الحرب كأنها عمل من أعمال المتعة والكسب . حكمها فى ذلك حكم القرصنة وقطع الطريق .

وكانت وحشيتهم وحشية سافرة . وكانوا يقولون : إنه من المستحيل على جندى أن يكون رجلا يعرف التهذيب والاحتشام . ولكن وجود «چان دارك» مصحوبة بقديسيها غيرالمنظورين.

ثمة أحال الجنود الفرنسيين إلى عصابات مقدسة نذرت نفسها للقتال .

وكان كل جندى فى الجيش الفرنسى يعتقد اعتقاداً ملؤه التقوى أن فرقاً من الملائكة تحارب معهم .

وكان الإنجليز يشاركونهم هذا الاعتقاد . وإن كان بعضهم يظن أن هؤلاء الجنود السماويين إنما هم شياطين لا ملائكة.

وسواء أكانوا ملائكة أم شياطين . فإن الإنجليز كانوا على يقين أنهم يحاربون جنوداً لا قبل لهم بها .

وكانوا يقولون : إنهم لقادرون على منازلة جنود من سكان هذه الأرض . أما منازلة قوات السماء أو قوات الجحيم فهذا ما لا يقدرون عليه أبداً .

ومجمل القول أن الجنود الإنجليز قد طردوا من « أورليانس» وذلك بفضل خوفهم من منازلة قوات لا قبل لهم بها . قد جاءتهم من السماء . وبفضل تفوق الجنود الفرنسيين عليهم فى العدد .

وكتب « دوق بدفورد » يقول : لقد نزلت بنا ضربة قاصمة كان الله منزلها .

وانتهت معركة أورليانس . وجرحت چان دارك فى آخر يوم من أيام المعركة . ولكن الجرح لم يكن خطيراً . إنما كان طعنة فى الكتف كما سمتها هى فى غير مبالاة . وكان عمقها ست بوصات .

ثم بطل الضجيج . وخمد اللهيب . واستغرق الجنود الإنجليز والفرنسيون فى نوم عميق بعد تلك المحنة القاسية . ولكن چان دارك لم تذق للنوم طعماً . وضمد جرحها . وكانت ترفه عن نفسها بكسرة خبز مغموسة فى نبيذ خالطه الماء الكثير . وهى كل ما أكلته من زاد فى ذلك اليوم . ثم رقدت على محفتها مفتوحة العينين . مستيقظة ترسم الخطوة التالية لرحلتها التى أوحت إليها بها السماء .

وكانت خطوتها التالية أن عادت إلى ولى العهد شارل . وقد زاد جيشها الآن إلى ١٢٠٠٠ .

وكان ينظر إليها فى كل مكان إما كقديسة أو كساحرة . فمن كان يؤيد قضية الفرنسيين سماها قديسة ومن كان يؤيد قضية الإنجليز سماها ساحرة .

والتقت بولى العهد فى مدينة « تور » وسارا على ضفاف نهر اللوار إلى مدينة « ريمس » .

وكان كلاهما يكاد يقتله الشوق . هو إلى أن يضع التاج فوق مفرقه وهى إلى وضع التاج فوق ذلك المفرق .

وقالت له « چان دارك » . يا ولى العهد أرجو أن لا تعقد تلك المجالس مجالس الثرثرة والجدل الطويل وأسرع إلى مدينة « ريمس » حيث تتوج . وقد قالت لى أصوات من السماء : أيتها الفتاة الصالحة اذهبى ثم اذهبى . . .

وكأن چان دارك قد عرفت أن أيامها قد أصبحت معدودة. فرأت أن الواجب يقضى عليها أن تؤدى مهمتها قبل فوات الأوان، ولذلك فقد سارت إلى « ريمس » فى سرعة لا تدانيها سرعة. وفر أمامها الجيش الإنجليزى وقد تملكه الرعب القاتل.

والمؤرخون لا ينكرون أن الإنجليز كانوا يبدون بين حين وآخر مقاومة فاترة كما حدث فى « جارجو » وفى « باتاى » وفى « تروى ». ولكن الرجال الملهمين من جنود چان دارك كانوا يخرجونهم من معاقلهم.

وكانت « چان دارك » تحاول ما وسعتها المحاولة تجنب القتال. وكانت ترغب فى رحيل الإنجليز عن فرنسا ولكنها لم تكن تكرههم. وكانت تجيش نفسها لمنظر الدم.

وكان يتولاها الحزن لما يصيب أعداءها من آلام وكأنهم من صميم قومها وكانت ترى فى الجريح سواء أكان إنجليزياً أو فرنسياً أخاً لها فى المسيحية قد أصابته محنة وألمت به ملمة.

وبعد معركة « باتاى » بكت أشد بكاء لما رأت الجرحى الكثيرين من جنود أعاديها تمتلىء بهم ساحة القتال.

وحدث ذات مرة أن قتل واحد من أقرب الرجال إليها أحد الأسرى الإنجليز. فنزلت عن جوادها وجثت إلى جانب القتيل وأمسكت برأسه بين يديها وحدثته حديثاً عذباً وهو يلفظ آخر أنفاسه. ولكن رجال عصاباتها المخلصين وهم الذين كانوا

يبيعون أرواحهم بيع السماح ذوداً عن قضيتها ودفاعاً عنها . لم يكونوا قادرين على أن يفهموا ما فى نفسها من عواطف الرحمة والحنان . فعلى الرغم من احتجاجاتها فإنهم قتلوا معظم أسراهم من الإنجليز .

وبلغ الجيش الفرنسى الظافر مدينة ريمس فى ١٥ من يوليو عام ١٤٢٩ . وبعد يومين من ذلك التاريخ توج رئيس الأساقفة « شارل السابع » ملكاً فى الكنيسة الفخمة وحضر هذا التتويج ندماؤه من صنفى الرجال والنساء . ولكن مليكته « مارى دانجو » تركت فى مدينة « شينون » اقتصاداً فى نفقات السفر . فقد جمع « شارل » بين الإفلاس الشديد والشح الشديد . حتى لقد قالوا إنه كان أكثر الناس شحاً .

وبتتويج « شارل » أتمت چان دارك مهمتها الأولى . فقد رفعت الحصار عن « أورليانس » وقد توجت الملك « شارل » ثم ناجت نفسها بقولها : إنى لأتمنى أن لو أذنت السماء بأن أعود الآن راعية . أرعى الغنم كما كنت . . .

ولكن السماء لم تسمح بأن يجاب هذا التمنى . وقد أنبأتها الأصوات السماوية أن تكمل ما بدأته . فقد وصلت إلى قمة نصرها والآن يجب عليها أن تحمل صليبها وقالت « چان دارك » للقوم المصفقين لها فى ريمس : إذا كتب على أن أموت فإنى أتمنى أن أدفن فى هذه البقعة .

ولكن عملا آخر يجب أن يعمل – قبل أن تستعد هى للموت – يزال أمامها. ذلك العمل هو طرد الإنجليز طرداً كاملا من رض فرنسا وهو عمل لا أمل فيه .

وعلى الرغم من انتصارها فإن حب الجماهير لها قد بدأ يضمحل . فقد أصبح جنودها الآن – كما كان أهلها من قبل – قريبين منها جداً . فامتنع الدافع للعبادة . وقد قيل . « إذا اقترب الآلهة زالت الهالة التى تحيط بهم » .

وكذلك إخوان « چان دارك » فى السلاح أصبح بريق معجزاتها لا يبهرهم . ذلك لأنهم قد اعتادوا اتصالها اليومى بالملائكة .

وكذلك عظمة الرؤى السماوية قد استحالت إلى ضوء النهار العادى .

وكلما طال بقاؤها مع جنودها قل صبرهم واشتد قلقهم . فقد حرمت عليهم السلب والنهب . ومنعتهم من ارتكاب الدنايا وأمرتهم بأن يلبسوا لباس التقوى وهم لم يتعودوه .

وقالوا : من أى نوع من القواد تكون هذه الفتاة ؟ تلك التى تأمرنا بالذهاب إلى الكنائس فى الوقت الذى نريد أن نقضيه فى المواخير والحانات . وكأنها تريد أن تجعل منا نساء لا رجالا .

فتمرد عليها الكثير من جنودها وهجرها كثيرون . وكان

أعداؤها فى ذلك الحين يرسمون الخطط التى تودى بها . وكان أعداؤها صنوفاً أربعة . الغزاة الإنجليز وأنصار هؤلاء الغزاة من الفرنسيين وندماء الملك شارل الذين كانوا يتمنون أن يخلو الجو لهم . ثم الغلاة من القسيسين المتعصبين الذين نقموا منها حبها للملائكة وحب الملائكة لها .

وكان الإنجليز على أثر معركة « أجنكور » (١٤١٥) يملكون أكثر الأقاليم الفرنسية شمالى نهر اللوار . وكانت بهم رغبة شديدة فى أن يمتد سلطانهم على مملكة فرنسا بأكملها .

ولكن « چان دارك » تلك الساحرة التى ينفث الشيطان فى روحها لم تكن تصد تقدمهم وحسب بل كانت تهدد بأن تنزع منهم الأقاليم التى ربحوها بثمن غال من التعب والدم . فأجمعوا أمرهم على أن يقفوها عند حدها بأى ثمن .

وكان يناصرهم فى هذا بعض النبلاء الفرنسيين الذين كانوا يأملونأن تكون لهم الغلبة على الملك شارل بفضل انتصار الإنجليز وكان زعيم هؤلاء المناصرين هو دوق برجندى « فيليب الطيب » وحقيقة اسمه يجب أن تكون « فيليب الذى لا يعرف الطيبة أبداً » (وقد كان هذا الرجل أباً لثمانية عشر طفلا غير شرعى) .

وكان تتويج شارل السابع ضربة قاضية على آمال فيليب الذى كان أغنى وأكفأ وأقدر من ولى العهد . وكان فيليب يأمل أن يصبح — وإنجلترا تحميه وتذود عنه — سيد فرنسا .

ولكن ظهور « چان دارك » قد قتل آماله فى مهدها . فأجمع أمره أن يضع يده فى يد الإنجليز للاقتصاص منها عقاباً لها على فضولها وكان أصحابها فى العلن أشد خطراً عليها من غلاة أعاديها . وكان ندماء شارل السابع غير المخلصين وخاصة مستشاره وحاجبه « جورج دى لاتروى » يخشون « چان دارك » لصراحتها وصدق إخلاصها .

وكان هذا الرجل صاحب سلطان وكان خائناً . فقد هجر زوجته الأولى وتزوج بأخرى كان هو قد قتل زوجها . وتقرب إلى الملك بأكاذيبه وملقه. وكان منافقاً من الطراز الأول فى السوء. وكان على تمام الأهبة فى كل وقت أن يخون مليكه . ذلك لأنه كان حليف الإنجليز فى السر . فعمل ما فى وسعه للتخلص من الفتاة القروية التى كانت تستطيع أن تستشف نواياه ومقاصده . والتى تستطيع أن تفتح عيون الملك على خيانته .

وهو لذلك — ووفاء منه لما ركّب فيه من خبث ودهاء — كان يبدى لجان دارك كل توقير واحترام — وهو فى السر — يتآمر على إسقاطها .

ولكن أخطر أعدائها كان أولئك القسيسون المتعصبون من رجال الكنيسة الفرنسية .

فعقد العهد على التمهيد لقتلها بين رئيس أساقفة ريمس وبين أسقف « بوڤيه » وبين رجال الكنيسة فى جامعة باريس .

وحجتهم فى ذلك أنها اجترأت — بغير إذن من الكنيسة — أن تتناول ما راق لها أن تسميه «خطط الآلهة» . مدعية أنها تخاطب الملائكة بالطريق المباشر . وهى بذلك قد انتهكت حرمة الكهنوت ، ذلك لأن الكهنة وحدهم هم الذين يسمح لهم — بفضل مكانتهم — أن يفسروا إرادة الخالق . وأن الكنيسة هى الواسطة بين السماء والأرض . وكانوا يعتقدون أن رؤى چان دارك يمكن أن تجىء من الشيطان . ما دامت تلك الرؤى لا تجيئها عن طريق الكنيسة . وكانت زنديقة « ضالة » . خائنة لرسالة السماء وكانت مصدر خطر لرجال الكهنوت . وعلى ذلك يجب أن تلقى حتفها .

وفى معركة « كمبين » وقعت فى الفخ الذى صنعه لها قومها وقد باعها آسروها الفرنسيون إلى الإنجليز بتحريض من «ترموى» بعشرة آلاف جنيه من الذهب .

وأسلمها الإنجليز بدورهم إلى محكمة التفتيش ليستوثقوا من موتها . وهكذا حوكمت چان دارك — ولو أنها أسيرة حرب — وحكم عليها كزنديقة .

وكان رئيس قضاتها « بيير كوشون » أسقف « بوڤيه » وهو من غلاة المتعصبين . وكان لحم الزنادقة المحترق طيب الرائحة فى معاطسه . وكان للأسقف فى محاكمة چان دارك صالح شخصى وصالح كهنوتى . فقد خسر مركزه كأسقف « بوڤيه » بتأييده قضية الإنجليز فى غزوهم لفرنسا . وذلك نتيجة لانتصار چان دارك الحربى .

ولذلك فقد قبل — إرضاء لعاطفة الانتقام عنده — هذه
مهمة . مهمة محاكمة هذه الزنديقة . عدو الكنيسة المبين .

والإنجليز بتسليمهم چان دارك إلى المحاكمة على يدى هذا
الأسقف قد أمضوا فعلا وثيقة موتها . وكانوا قد بيتوا نيتهم أن
يدعوها تخرج حية .

وكان من المتفق عليه قبل المحاكمة أنه إذا برأتها محكمة
التفتيش من تهمة الزندقة فعلى المحاكم المدنية أن تحكم بإدانتها
كخائنة .

وإذا نجت من براثن الفرنسيين فيجب أن تقع بين براثن
الإنجليز .

وفى بدء المحاكمة أعلن قسيسان من الذين جلسوا لمحاكمتها أن
القضية كلها قضية باطلة . فسجن أحد هذين القسيسين وهرب
الآخر قبل أن يقبض عليه .

وكان بالإنجليز ظمأ شديد إلى تعذيبها . ولكن ما شأن
كنيستها المحبوبة فى هذا التعذيب ؟ ألم يكلمها الله عن طريق
الملائكة وعن طريق قديسى الكنيسة ؟

وقالت لقضاتها . « إنى مبعوثة الله . ولا شأن لى هنا . فابعثوا
بى إلى خالقى الذى أرسلنى » .

وحاول قضاتها أن يقنعوها — كما كانوا هم أنفسهم مقتنعين —
أنها مبعوثة الشيطان .

وكان قضاتها ثلاثة وستون يترأسهم « كوشون » وقد قضو حوالى أربعة أشهر فى محاولتهم الفاشلة ليبرهنوا لها أنها كانت ساحرة . وكان جوابها دائماً واحداً لا يتغير وهو : إن الأصوات التى سمعتها كانت من السماء وليست من الأرض . وأخيراً بدأت تستيقن أن الحكم بإدانتها قد أمضى . ومع هذا فلقد بقيت ثابتة وظلت روح الفكاهة غالبة عندها إلى النهاية .

ومن فكاهاتها أنها قالت لقضاتها فى إحدى جلسات المحاكمة وقد ظلوا يتكلمون فى صوت واحد وهم يرمونها بكلمات التعنيف والتعزير . أرجو أيها الآباء الصالحون أن تتكلموا فرادى لا مجتمعين لئلا تختلط أصواتكم عليكم .

وتمت فصول الرواية التى جمعت بين « الملهاة والمأساة » فى نهاية شهر مايو عام ١٤٣٠ . وثبت لدى قضاتها أنها مذنبة .وأن جريمتها هى « المتاجرة مع الشيطان » . وتقبل « بيير كوشون » التهانى من جامعة باريس على روح القداسة والعدل التى سادت المحاكمة .

وحكم عليها قضاة الكنيسة بالموت حرقاً وطبقاً للنظام الكنسى السائد يومذاك فقد أسلموها لجلادى الحكومة لإحراقها .

وهكذا نفض أسقف « بوفيه » يده من الوجهة القضائية . إن لم يكن من الوجهة الأخلاقية من التبعة كلها .

ولكن « چان دارك » كانت أعلم منه وأعرف بالحقائق فقد

صرخت فى وجهه وقد بدأ اللهب يحيط بها وقالت : أيها الأسقف إنى أموت على يديك . . .

ثم لما ارتفع اللهب همست قائلة . إن الله سبحانه هو الذى أرسلنى وأنا الآن أعود إليه .

هذا والسماء ترسل بين حين وحين ملكاً من الملائكة لتعليمنا ، فإذا جاءنا جهلنا ما جاء لأجله وأنكرنا رسالته وطردناه من بيننا .

ففى عام ١٤٣١ نفذ الحكم رسمياً فى « چان دارك » كساحرة وفى عام ١٩٢٠ اعترف الناس رسمياً بقداستها . وأعلنوا ذلك فاستراحت فى قبرها . . . »

كريستينا ملكة السويد
١٦٢٦ – ١٦٨٩

كان الطفلان الأولان اللذان أنجبهما الملك « جوستاف أدولف » بنتين وماتت كلتاهما فى طفولتهما .

وتنبأ المنجمون أن الولد الثالث سيكون غلاماً . لا ريب عندهم فى ذلك ولا شك . فإنهم يقرأون هذا واضحاً فى النجوم .

وقد ثبت أن المنجمين كانوا نصف صادقين . فقد كانت كريستينا يوم ولدت ذات بشرة دكناء وجلد أشعر وكان صوتها خشناً حتى لحسبها الناس أنها صبى لا صبية . ثم بدت على حقيقتها صبية غريبة الأطوار .

ثم ظلت طوال حياتها تغلب عليها خصائص الذكورة . فكانت تركب الخيل وتقاتل كما يقاتل الفرسان . وكانت تقص الأقاصيص المخزية فى غير خجل ولا حياء . وكانت تجلس فى وضع هو أبعد الأوضاع عن جلسة النساء وساقاها مرفوعتان فوق مسند الكرسى .

وكانت تفضل الأقمصة القصيرة . أو قل إنها كانت تفضل السراويل القصيرة .

وكانت تقول : إن ملابس النساء وأساليب النساء لا تروقني ولست أطيقها .

وكانت في الصبر والجلد رجلا من الرجال . فيكفيها من النوم أربع ساعات أو خمس . وتعمل عملا متواصلا مضنياً في الحر اللافح والبرد القارس على السواء . وتبز مرافقيها من الرجال والنساء في السير الطويل على الأقدام .

وكانت تبدو لهم كحبة من زئبق في انزلاقها إلى مخاطرات تتجدد أبداً . في غير كلال أو ملل . وكانوا لا يعرفون في صحبتها طعم الراحة لا في الليل ولا في النهار .

وكانوا لذلك يأبون أن ينادوها بلقب المؤنث . ويفضلون أن ينادوها بالأمير كريستينا . لا الأميرة كريستينا .

ومختصر القول أن هذا الأمير كريستينا كان يبدو في طباع الرجال إلا في خلة واحدة وهي خلة التقلب وعدم الاستقرار . فكانت بذلك بنت جوستاف أدولف امرأة قبل كل شيء وبعد كل شيء .

وولدت وحرب الثلاثين قد انتصفت . وتلك الحرب في أصلها حرب ألمانية . فكانت كريستينا طوال حياتها تكره الحرب وتلعن الألمان . وسمعت في طفولتها أقاصيص مفزعة عن سلب الجنود ونهبهم وعن عذاب المدنيين وآلامهم . أو على حد تعبيرها : سمعت كثيراً عن الكلاب الجائعة التي تأكل الرجال وعن الرجال

الجائعين الذين يأكلون الكلاب .

وكانت تسأل قومها كل يوم : لماذا هم يحاربون ؟ فيجيبونها جواباً واحداً لا يتغير — « الله أعلم » .

ومع فرط إعجابها بالشجاعة فقد كانت تكره الوحشية . وخصوصاً تلك الوحشية التى خلت من كل عاطفة وتجردت من كل حس .

فهى لم تنس بشاعة ذلك اليوم النحس الذى تركها فيه أبوها إلى غير رجعة . وكان عمرها يومئذ أربع سنوات . وقد أمسكت بلحيته لتجعله يصغى إلى خطبة وداعها . ومربياتها هن اللائى علمنها تلك الخطبة .

وفى روايتها عن تلك الحادثة تقول : فلما شاهد الملك ذلك أخذنى بين ذراعيه وقبّلنى ولم يستطع لدموعه حبساً . وكأنه كان يحس إحساس الملهمين أنه ملاق الموت عما قريب فى ميدان القتال .

وكانت كريستينا تعجب بأبيها ولا تعبأ بأمها إلا قليلا . وكانت تصفها بأنها امرأة تغلب عليها العاطفة كثيرة التنهدات . بليدة الحس .

ولقد سرت كريستينا السرور كله يوم أخذت من أحضان أمها وهى فى السادسة من عمرها . ليتولى تعليمها وتثقيفها وزير المملكة أوكسنسترن Oxenstiern .

وكان تعليمها تعليم رجل يقوم به رجال . وما كانت تستريح إلى مجالس النساء وما كانت تستريح إلى طرقهن الملتوية، ولا إلى دراساتهن التى تدعو إلى الدهشة . كدروس التطريز وكتثقيفهن فى آداب الدلال والغزل .

ولم تكن كريستينا فى حاجة إلى أن تحذق فنون التزيين والتجميل وتكلف الابتسام لتظفر بالإعجاب الأخرق لدى طائفة ممن نالوا ألقاب المجد لأسباب لا تمت إلى المجد بسبب .

وكانت تركب حصانها كما يركب الفتيان لا كما تركب الفتيات . وكانت تطلب أن تقدم لها أطعمة الرجال وكتب الرجال . فمن مقالات فى الفلسفة إلى أبحاث فى السياسة واللاهوت والفنون واللغات المختلفة . وكانت تقول إن الأمير من الأمراء يجب أن يتعلم كيف يتحدث بمختلف اللغات إلى مختلف الأقوام .

وكانت تلميذة آية فى الذكاء مع بعدها عن سهولة التسليم بكل ما يلقى إليها . وكادت تحسب فى عداد العبقريات ومع هذا فقد أجبرت بحكم مولدها أن تكون ملكة .

وكانت ترى أنها — كملكة — قد حرمت من أن تسعى فى مناكب الأرض تذوق لذة الأمل فى النصر كما تذوق لذة الخوف من الهزيمة .

وكانت كريستينا — كما سنرى — قد أوتيت الشجاعة

الكافية لتخرج بنفسها من ذلك المهد المذهب . فأجمعت أمرها على وضع حد لحرب الثلاثين سنة . وكان اتخاذها لهذه الخطوة فضيحة وثورة .

وقد قيل لها فى ذلك فلم تصغ إلى نصائح مشيريها ومضت قدماً فأمضت صلح « وستفاليا » . وكانت يومئذ فى الثانية والعشرين من عمرها . ثم توالت فضائحها . فرفضت أن تتزوج ، وقالت فى ذلك : إن طموحى وكبريائى لا يسمحان لى بإخضاع إرادتى لإرادة رجل آخر . ومن أعمالها التى لا تتفق وجلال الملك تعيينها « سالفيوس » — وهو رجل من الأذكياء ولكن فى حسبه ضعة — عضواً فى مجلس الشيوخ . فلما كلمها وزير مملكتها فى عدم مبالاتها هذه وفى تلويثها دم أصحاب الحسب العالى بدم واحد من أصحاب النسب الوضيع قالت وعلى فمها ابتسامة : إن الكفاءة الشخصية أغلى قيمة وأعلى قدراً من كفاءة الميلاد .

وإذا فكر المرء فى كريستينا بدا له أنها لم تخلق وعليها سمت الملوك وهيئتهم . فهى جسم ضخم قد بنى على ارتفاع قليل من الأرض . وقليلا ما كانت تمشط شعرها بل كانت تربطه فى غير عناية . وكان لها وجه قد لوحته الشمس وكأنه وجه امرأة تعمل فى الحقول . وكان لها أنف طويل وكانت شفتها السفلى متدلية وكان صوتها صوت رجل . فإذا رأيتها حسبتها فتاة من فتيات المطبخ قد ضلت طريقها فدخلت غرفة الجلوس .

ولم يكن بين مرافقيها من جرى فى عروقه دم النبلاء الذين كانوا يمضون أيامهم فى الصيد ويقضون لياليهم فى اللعب ومغازلة النساء . بل كانوا كلهم من الرعاع والسوقة الذين يضيعون وقتهم ووقت الملكة فى أبحاث عقيمة عن الموسيقى والنقش والكتب . ومن أمثلتهم ذلك الأديب«سالفاتيوس » ذلك الرجل الذى كان يتحدث باللغة اللاتينية القديمة بدلا من اللغة السويدية الحديثة .

وذلك العالم « ستيرنهلم » الذى حاول أن يدخل إلى بلاد السويد زجاجة سحرية خارقة اسمها « الميكروسكوب » . والذى بحيلة من حيله قد أشاط لحية واحد من الفلاحين . وكبّر حجم ذبابة بحضور واحد من القساوسة . فألقى الفلاح والقسيس القبض عليه بوصفه ساحراً ومنكراً لوجود الله سبحانه .

وذلك الفيلسوف « ديكارت » الفرنسى الذى حاول أن يعلّم كريستينا أسرار السماء وهى فى حاجة إلى أن تأخذ نصيبها من متع الدنيا وملاهيها .

وقد أحسنت كريستينا صنعاً بإصرارها على أن تتلقى دروسها منه فى الساعة الخامسة صباحاً . وقد سبّب له هذا الصحو المبكر فى طقس السويد أن يصاب بالسل ثم يموت .

وقال رجال حاشيتها . ومع هذا كله فقد ظلت كريستينا معنية كل العناية بأدبائها وكتبها . وقالوا : ما حاجة كريستينا بهذه الكتب ؟ إن واجبها أن تحكم وتملك . لا أن تفكر .

وبالرغم من هذا العذل كله فقد دأبت كريستينا فى تفكيرها وجاءت يوماً فأذهلت رجال حاشيتها وأجمعت أمرها على التخلى عن الحكم وقالت لهم : إنى اعتزمت أن أتخلى عن العرش وأن أبدل ديناً مكان دين. فكان قولها هذا صاعقة ذات شعبتين، فذهل الشعب السويدى وصعق . وقالوا : إن هذه المرأة قد قلبت أوضاع الطبيعة . فإن معظم الناس يودون لو فقدوا حياتهم فى سبيل الوصول إلى العرش . وكريستينا تفقد عرشها لتكسب حياة.

وكان عمرها يومذاك ثمانى وعشرين سنة . ومنذ ذلك الحين لم تصبح شخصاً من الأشخاص العظماء بل أصبحت شخصاً من الأشخاص العاديين .

وقالت كريستينا فى الترجمة التى وضعتها لحياتها إنها تنازلت عن التاج لكى تظفر بالسلام .

وإذا أردنا أن نحكم عليها من أفعالها المقبلة فإنها تبدو لنا كأنها تخلت عن تاجها لتظفر بالتصفيق . فقد برمت بتمثيل دورها كمليكة للسويديين فأرادت أن تمثل للعالم كله دور الرعناء الطائشة . بل أرادت أن تمثل الدور الأول فى رواية من وضعها وتأليفها .

وقد كتبت بعد أيام قلائل من تنازلها تقول : إنى أعرف أن الرواية التى مثلت فيها لم تراع فيها قواعد المسرح .

وهذه الكلمات القليلة الجريئة تبين لنا الهدف الأول لحياة

كريستينا وقوام هذا الهدف أن تذهل الناس بمخالفتها للقوانين . وكانت ترى أن تمثيل أدوارها يجب أن يختلف عن تمثيل أى امرأة أخرى . وكان تنازلها عن العرش أكثر إثارة للعواطف من الانتصار فى الحرب . ورفضت — بعد أن تخلت عن تاجها — أن تخرج من بلادها فى موكب متواضع . وأبت إلا أن تسير فى موكب هو بمواكب الغزاة المنتصرين أشبه .

ثم نهبت ما فى القصر من صحاف فضية وذهبية ومن أثاث ومن تحف غالية وطنافس نفيسة . ثم زادت بأن نهبت جواهر التاج ولآلئه . حتى لقد قيل إن « شارل جوستاف » الذى خلفها على العرش لم يجد فى القصر غير سجادتين وغير سرير قديم .

ولو أنها تخلت عن اسمها الملوكى إلا أنها استبقت حاشيتها الملوكية وهى فى تنقلها من بلد إلى بلد قد جعلت أوربا كلها فى هرج ومرج بمفاجآتها المدوية .

فيوماً يقال للناس إنها قصت شعرها . واتخذت ملابس الرجال وأمسكت ببندقية فى يدها . ووضعت اسمها فى قائمة المحاربين فى فلاندرز تحت إمرة « كونديه » .

ويوماً يقال إنها رغبت فى اعتزال العالم . ثم لا تلبث أن تظهر مرة أخرى فى موكب حافل .

ويوما أعدوا لها أسطولا فى إحدى الموانئ وإذا بها تبحر — عامدة — من إحدى الموانئ الأخرى .

وكانت إذا دخلت قرية ذكّرت أهلها بالملاعب المتنقلة . فتجمّع أهل القرى من كل مكان لكى يهتفوا لأكبر أعجوبة ظهرت فى البلاد المسيحية .

وكانت تارة تبدو فى سمت الملكات وعظمتهن . وطوراً تبدو فى ملابس المهرجين الساخرة .

وكان غرامها أن تفجأ الناس بما يثير دهشتهم . فقبلت مرة — وهى فى مدينة هامبورج — ضيافة صيرفى يهودى . فلما أعلن رجال الدين استنكارهم لهذه الفعلة من فوق المنابر . كان ردها أن المسيح كان يهودياً وأنّه استمتع طوال حياته بضيافة اليهود .

وهكذا كانت تسير بروايتها التمثيلية المدهشة . ناقلة مناظرها من «هامبورج» إلى «بروكسل» إلى «أنتورب» ثم إلى «انسبروك» . وكانت تلقى فى كل مكان هتاف الجماهير وتحيات الجنود وأجراساً تدق وألعاباً نارية تنطلق فى الجو .

وفى « أنسبروك » اعتنقت المذهب الكاثوليكى . وكانت تتخذ مذهبها الدينى — ككل شىء آخر عندها — وسيلة للمباهاة .

وقد قيل فى أسباب تحولها إنها الرغبة الصادقة — إلى حد ما — فى البحث وراء الحقيقة .

ولا جدال فى أن القلب الإنسانى آلة موسيقية معقدة . كثيرة الأوتار . ولا يعدم الناس عالماً نفسانياً يستطيع أن يرجع

بدقات قلب المرء على كل وتر إلى سبب من الأسباب الإنسانية.

ولكن يكاد يكون أقرب إلى اليقين أن حب الملكة « كريستينا » لأن تظفر بأحاسيس غير عادية هو الذى دفع بها إلى اعتناق مذهب دينى جديد .

وكان شعارها فى الحياة قولها : يجب على المرء أن يجدد دائماً فى كل شىء .

وقد كان سهلا عندها ان تخلع رداء « المذهب اللوثرى » ذلك لأنها كانت تلبس دائماً هذا الرداء مفكك الأزرار .

وكانت وهى طفلة بل كانت وهى امرأة تقرأ ديوان « فرجيل » أثناء الصلاة فى يوم الأحد .

والآن قد لبست ملابس المذهب الكاثوليكى . ولما أراد قساوسة لوقان أن يضعوا اسمها فى قائمة القديسين أجابتهم قائلة : لا وأشكركم . وإنى لأفضل أن أجد اسمى فى قائمة الفلاسفة .

وقد قيل إنه بعد الانتهاء من حفلة تحويلها إلى الكاثوليكية فى مدينة « أنسبروك » طلبت أن تمثل أمامها ملهاة غنائية . ترفيهاً وتسلية . وقالت للمحيطين بها ؛ من الأليق أن تسلونى بتمثيل ملهاة كما سليتكم بتمثيل مهزلة .

وقد سرها بعد هذا أن تصبح مركز الدائرة لريح عاصفة تتجاذبها الشتائم واللعنات من ناحية اللوثريين والإعجاب والتقدير من جانب الكاثوليكيين . فاتخذت سبيلها — فى تبجح المتبجحين —

إلى روما . لكى تتناول الأسرار المقدسة فى كنيسة القديس بطرس وهى فى ملابس الركوب وعلى رأسها قبعة زاهية الألوان غريبة الشكل .

فكان هذا العمل مدعاة لاستياء الحبر الأعظم من المرتدّة الحديدة وكان يرجو أن يلقى قديسة متوجة . فإذا به يلقى خاطئة غير متوجة . وقلق الآباء الكرادلة لرؤيتهم هذه الخاطئة المختالة المزهوة بين ظهرانيهم . وحاولوا أن يحولوا قلبها فنجحت هى فى تحويل عقولهم . وبخاصة عقل الكاردينال « كولونا » . فقد كان هذا الأسقف المسكين يذّرى الذّرور على وجهه ويغنى لها فى الليل أغانى العشاق تحت مخدعها كأنه أحد الشعراء المغنين بقيثارتهم . ولما وصل هذا إلى مسامع البابا أمر بإخراج هذا الكاردينال من روما .

وأرسل قداسته إلى « كريستينا » سبحة مصحوبة بتحياته ونصح لها أن تدعو الله عدد حباتها أن يغفر لها خطيئاتها .

وردت كريستينا على قداسته فى ابتسامة حلوة يشوبها الصلف أنها قد وجدت فى الكاثوليكية ما يفوق الدعاء على حبات المسابح . فلما حاول قداسته زجرها عن طيشها ورعونتها جثت تائبة نادمة تسأله البركة والدعاء .

ومع هذا فإن الندم — حتى فى حضرة الحبر الأعظم — لم يكن من خصائصها المألوفة .

وترجمة حياتها التى كتبتها لنفسها ملأى بالفقرات التى تنم عن الخيلاء والزهو وتمجيد الذات كقولها : صفقوا لى يا أهل بلادى . . . وكقولها : مجّدوا ذكاء عقلى . . . وكقولها : أيها الخالق أى عقل عظيم وهبتنى . . . فهأنذا كريستينا ملكة السويد ثامن أعجوبة فى العالم . . .

وقد ظل العالم ينظر إليها ويعجب ويصفق. ثم برم بها وبتمثيلها . فقد كانت رواياتها — أكثر ما تكون — تتخللها المفاجآت المؤثرة والألحان المحزنة .

وقد دار بينها وبين كثيرين فى روما عراك طال أمده حتى ملّوها وودوا التخلص منها . وهى كذلك — بدورها — قد ملّت العراك فودت التخلص منهم .

وقد شاهدت بعينيها زوال مجدها . فدعت مرة أربعين للغداء فلم يجب الدعوة منهم أحد .

وغاض معين ثرائها . فرغبت فى العودة إلى السويد — فرعاياها ما زالوا بها معجبين — لتحصل على المال الذى يعينها على إخراج روايتها الكبرى .

فقدم لها البابا ١٠,٠٠٠ كرون هدية لها . وعربوناً على الخلاص منها . فأقلعت كريستينا إلى السويد (فى اليوم التاسع عشر من يوليو عام ١٦٥٦) .

وفى طريقها إلى بلادها عرجت هذه الملكة المتشردة على

فرنسا كفترة راحة — بالغة الأهمية وإن كانت غير لذيذة — فى روايتها التى أذهلت العالم . وبعد مرور موكبها العاصف بعدة مدن فرنسية . امتطت حصاناً كبيراً أبيض والغدارات فى أجربتها وشعرها المستعار غير مرجّل وبدت على محياها سيما النوّر . وكانت يداها قذرتين وفى غير قفاز . وأدهشت العالم بحادث جديد من حوادث جنونها . وهو حادث قتل . وكان مسرح الجناية قصر لويس الرابع عشر فى فونتانبلو . وكان الضحية الكونت « مونالدسكى » المشرف على خيل كريستينا . فقد كتب هذاالرجل خطابات عديدة سب فيها الملكة . وقد وقعت هذه الخطابات فى يدها — وكانت سيدة فضولية ترى مسائل كل الناس مسائلها هى — وواجهته بها .

وأقر «مونالدسكى» بجريمته وطلب المغفرة . ولكن كريستينا لم تكن تعرف شيئاً اسمه التسامح . فدعت إلى غرفتها قسيس « فونتانبلو » وقالت له وهى هادئة مطمئنة : أيها الأب . إنى أترك هذا الرجل بين يديك . فأعده للموت . ثم دعت بالسيافين وكانوا ثلاثة من الهواة لا يعرفون كيف يقومون بمهمتهم . فظل الرجل بين أيديهم يذوق عذاب الموت البطىء ساعات عديدة .

والقتل فى ذاته وحشية . ولكن ارتكابه فى جو من الضيافة . وفى قصر كانت « كريستينا » و « مونالدسكى » فيه ضيفين قد أضاف إلى وحشية القتل شناعة الخلق الذميم . ثم قالت : وقد

أدى هذا القول إلى طردها من فرنسا ــ نحن أبناء الشمال وبناته ذوو طبائع خشنة لا تأبه لما يختلج فى أفئدة الناس . أما ما فعلته مع « مونالدسكى » فتعليله أنى أرى أسهل وأيسر أن أختق الناس ذلك أولى من أن أخافهم .

وكانت تحس ــ بوصفها ملكة سابقة ــ أن ما فعلته يجب أن لا يشغل الناس أنفسهم بأمره . وكانت تقول : إن للآلهة ولكريستينا قانوناً أدبياً خاصاً بهم . ولنا كل شىء مباح .

ثم ظلت كريستينا ــ ــ وهى القلقة دائماً ــ تبحث عن إثارة جديدة للاحساس . فقد جربت من قبل الانفعال الذى سببه خلعها للتاج . وهى الآن تريد أن تجرب الانفعال الذى يسببه اقتفاء أثر ذلك التاج .

فحاولت أن تصبح «ملكاً» على نابولى. فلما فشلت هذه المحاولة قدمت نفسها لتكون « ملكاً » على بولندة وأعلنت « أنها سوف تبرهن على أن تكون أكبر محارب عرفته بولندة . وهى التى كانت أكبر نصير للسلم عرفه العالم » .

فلما رفض البولنديون هذا الترشيح متذرعين بأنها قتلت « مونالدسكى » وهى مطمئنة البال . قالت « كلا » فإنى لم أقتله وأنا مطمئنة البال بل عنيت العناية كلها أن يتناول الأسرار المقدسة قبل أن يلقى نهايته . ولكن الأشراف البولنديين قد أصمتهم دعاءها . وكانوا عن فضائلها عمياً فلم يلبوا نداءها .

ثم أرادت أن تسير قدماً فى إتيان كل عمل مخالف يبعث فى النفس الذهول وهى تقول : « يجب أن يتوقع العالم منى دائماً كل شىء غير متوقع » . فبدأت تجيّش جيشاً لآخر حملة صليبية ضد الأتراك . وهذا الجيش — ككل تدابيرها الأخرى الخطيرة — قد ذاب فى مخيلتها . ولم ير النور أبداً .

وكتب « الكاردينال أزولينى » متهكماً — وكان كبير المشرفين على أمور بيتها — « إن الملكة لقديرة على أن تعلو بآرائها ثم تهبط بها قبل أن تنضج تلك الآراء نصف نضج . »

ثم جاءت أمرّ تجاربها مذاقاً . وهى أن يجر النسيان عليها ذيوله وهى حية ترزق . فقد انمحت ذكراها من عقول الناس . وهى لا تزال تريد أن تذهلهم بفعالها . ولكن العالم قد أبى أن تتولاه الدهشة والذهول . وخرج عليها جمهور مستمعيها ومشاهديها وما زالت هناك بقية فى فصول الرواية. وحاولت أن تختتم روايتها بفصل من فصول الحب يثير الشجن — وهى محاولة يائسة — لتدفئ نفسها فى قلب الكاردينال أزولينى . ولكن الرجال الشبان إنما يضحكون من عقول النساء العجائز .

فكريستينا اليوم قد أصبحت مفرطة السمنة ضخمة الجثة لها ذقن مزدوجة وشعر قصير أشعث . وقد لفت حزاماً حول خصرها الأكرش . وكتبت إلى « أزولينى » الرسالة فى إثر الرسالة تستعطفه أن ينظر إليها نظرة ود . وتقول له : لا شىء فى الدنيا

يحول دون حبي لك حتى ساعة الموت . أما وقد حالت دواعى التقوى بين حبلك وبينى . فإنى أعفيك من واجبات خدمتى . وسوف أظل أنا قانعة بأن أعيش وأن أموت أمة لك وخادمة .

فكان « أزولينى » عند قولها . وكتب وثيقة وقدمها لها للتوقيع وقال لها إن هذه الوثيقة هى فى صالح بيتها . ولما كانت كريستينا قد أصبحت لا تستطيع القراءة فقد أمضت الورقة . وكانت وصية تجعل أزولينى وريثها . وكان هذا الإرث يرتفع إلى أرقام الملايين من الكرونات .

وكان أزولينى هو المتفرج الأخير والمصفق الأخير لنهاية هذه الممثلة .

وقال الناس — وإن كان هذا القول لا بد أن يكون خيالياً كقصة حياتها .

«إن شخصاً آخر قد كان حاضراً ساعة أن فاضت روحها . ذلك الشخص هو شبح « مونالدسكى » الذى قتلته فى إبان شهرتها . . . »

أليزابيث باريت برونج
١٨٠٦ – ١٨٦١

نشأ أبوها فألفى نفسه مالكاً للأرقاء من العبيد ، وكان لذلك يعامل أولاده الاثنى عشر معاملة العبيد الأرقاء . وكان قاموس مفرداته يحتوى على كلمتين هما فى المكان الأول من صفحاته . وهما « الأمر » و « الطاعة » فله « الأمر » وعلى أولاده أن يطيعوا ذلك « الأمر » .

وكان رحيما بهؤلاء العبيد الصغار الذين هم من لحمه ودمه رحمته بكلابه .

ولكنه كان يستقطر من أولاده آخر نقطة من ذلك الولاء الذى لا يعرف المروق دون أن يناله منهم نبحة أو عضة .

وقد بنى لهم ولزوجته — وهم لم يستشاروا بالطبع — قصراً هو بقصور الشرق الفخمة أشبه . ثم وضع كل واحد منهم فى خلية مذهبة من خلايا ذلك القصر ثم أغلق الباب دونهم .

وحدثتنا أليزابيث : « أنها طالما تاقت نفسها أن تنفلت — والقوم كلهم نيام — فتهرب هروب الروح من سجن الجسد . وتتخطى المروج وتسير فى الدرب حتى تبلغ الجبل فترتع وتلعب

فوق الجبال ساعة أو ساعتين ثم تعود إلى البيت قبل أن يصحو أولئك النوّام .

ولكن عبد الرق لا ينبغى له أن يأبق ويهرب من مالكه .

وحرّم على أليزابيث أن تخاطر كما يخاطر الأطفال وهم يلعبون . فكان عليها أن تقنع بمخاطراتها الفكرية . ولم يكن « مستر باريت » يمانع مطلقاً فى أن تستمتع بتلك المخاطرات الفكرية .

ويجب أن نذكر — لوجه الحقيقة — أنه كان يشجع هذه المخاطرات أو الألعاب الفكرية .

وقد بدأت صاحبتنا — والفخر بقدرتها الشعرية يملؤها — تقرض الشعر وهى تكاد تكون فى المهد .

وقد أذن لها أبوها أن تطوف بمكتبته كلما شاءت . وكان يقول لها : اقرئى الكتب التى فى هذا الجانب من المكتبة . ثم لا تقربى أبداً الكتب التى على الجانب الآخر ذلك لأنها كتب ممنوعة . ومن تلك الكتب الممنوعة — « تاريخ جيبون » ورواية « توم جونس » للروائى هنرى فيلدنج . وأمثالها .

وفى الجانب المباح كنت تلقى : أفلاطون وشكسبير وهوميروس وملتون والكتاب المقدس .

وفى هذا الجانب أيضاً كنت تلقى : وقد غاب هذا عن فطنة مستر باريت ويقظته — عصر العقل « لتوم بين » و « قاموس

الفلسفة » لفولتير « وورتر » لجوته . ومقالات « هيوم » . وقالت أليزابيث : وهى كتب لم تتولانى الريبة عند النظر إليها . ولكنها كتب لا تقل أثراً عن تلك الكتب المحرمة الممنوعة .

وقد أوتيت أليزابيث روحاً متمردة جبارة فى جسم ضئيل . وكأنها كانت جنية صغيرة فى عالم ترابه من عبقر .

ومن أقوالها — « إن الكتب والأحلام كانت عالمى الذى أعيش فيه » . وبخاصة كتب هوميروس . وكان يلذ لها أن تقرأ حصار « طروادة » . ورحلات عوليس ومأساة « هكتور » . حتى لقد صنعت فى حديقتها تمثالا ضخما من الحشائش لهكتور . وجعلت فيه عينين زرقاوين وخدين متوردين ووضعت على صدره لوحة من ذهب .

ولم تكن بطبيعتها صانعة تماثيل ولكنها كانت شاعرة . وفى الثامنة من عمرها أدخلت السرور على أهلها بدفتر حوى قصائد غنائية وأناشيد . وفى التاسعة من عمرها . صنعت قصيدة من شعر الملاحم . وفى العاشرة ألفت مأساة بالفرنسية مثلتها هى وإخوتها فى غرفة الأطفال .

وفى الثالثة عشرة أتمت ملحمة فى أربعة أقسام عن معركة « ماراتون » . وقد أعجب والدها بهذه الملحمة حتى لقد أمر بطبع خمسين نسخة منها . وكانت أليزابيث فخورة بسرور والدها حتى لقد أهدت القصيدة إليه . وقالت فى الإهداء : « إلى الوالد

الذى تغمرنى إنعاماته التى لا تنقطع . والذى لا أستطيع أبداً أن أجزيه جزاء حبه . أقدم هذه الصفحات شهادة صغيرة تنطق بعرفان الجميل » .

وكانت أليزابيث . كما كان كل إخوتها وأخواتها . يعجبون إعجاب العبيد الأرقاء بحكم والدهم ذلك الحكم الذى يقوم على الظلم المنطوى على الإحسان والخير .

وقد استأجر هذا الوالد الظالم المحسن معلماً لولديه الكبيرين (أليزابيث وإدوارد) وقال له إن التعلم يجب أن يكون كله كلاسيكيا . وكان علم الحساب عنده من المحرمات المنهى عنها . وكانت أليزابيث إلى آخر أيام حياتها تحسد من الناس من وهب القدرة على أن يضرب الرقم ثلاثة فى الرقم ستة . دون أن يستعين بالعد على أصابعه .

وكانت قليلة الحظ فى العلم بالرياضيات وكانت وثنية مشبوبة الهوى . وقد أولعت ـ بتوجيه من معلمها وكان أديباً مكفوف البصر اسمه هـ . س . بويد ـ أقول قد أولعت بالقدماء من آلهة الأولمبيين حتى لقد كانت تقدم لهم القرابين فى الخفاء .

وكان والدها يشجعها على المضى فى دراساتها الإغريقية وكان يجهل ميولها الوثنية . ولو علم وهو المسيحى التقى بتلك الميول الوثنية لصعق إذا سمع فتاته تقول فى صلاتها بالليل . « أيها الإله ــ إن كان هناك إله ــ أنقذ نفسى من مهاوى الهلاك إن كانت لى نفس» !

وكانت أليزابيث فى السادسة والعشرين من عمرها عند ما خطت أولى خطواتها فى طريق الثورة الصريحة على الأوضاع .. وكانت تختار للترجمة الأشعار الإغريقية القديمة التى تمت للثورة بسبب متين . كاجتراء برومتيوس الجبار على مناقشة الإله زيوس أبو الآلهة وسيدهم . وفى اختيارها لهذا الموضوع تشير أليزابيث من طرف خفى أنها هى أيضاً تود أن تناقش سلطة زيوس فى بيتها وهو أبوها وأبو إخوتها وسيدهم .

ولكن هذه الثورة من جانب أليزابيث كانت ثورة مخففة . ولم تكن ترجمتها « لبرومتيوس » إلا إشارة خفية لا إعلاناً صريحاً لرأيها فى استبداد والدها . أو قل إنها إشارة خفية من العقل اللاواعى لا من العقل الواعى . ذلك بأنها لم تكن إلى تلك الساعة تعرف أن والدها كان على غير حق .

وكانت ترسف فى الأغلال والقيود ولكنها كانت تظن أن تلك الأغلال والقيود قد يكون فيها الخير لها . ذلك لأن والدها قد قال ذلك القول . ومن المقطوع به أن والدها كان طاغية رحيما . وكانت له القدرة على أن يكون ظريفاً جداً أحياناً . وعلى أن يكون مفكراً يطيل التأمل والتفكير . وعلى أن يكون مرحاً يطلق النكات ذات اليمين وذات الشمال . وكل هذا إذا لم يقم فى سبيل ما يريده متحد أو معارض .

وكانت طريقته فى اختيار الكتب التى يتحف بها فتاته أن

يقرأها فإذا راقت له أباح لها قراءتها .

أما الصور فكان يختار لها صور « رمبرانت » و « تيتيان » و « أندريا دل سارتو » . وكل صورة تروق لها . على أن تروق له أولا . وكانت فى هذه المرحلة كسيحة مقعدة . فقد نهك قواها احتقان فى الرئتين . وقد لازمها هذا الضعف طوال حياتها ، فكانت تظل دائماً فى غرفتها . وقلما كانت تفتح النوافذ وقلما كانت تزيح الستائر لتأذن للشمس فى الدخول .

وكان والدها يحسن إليها الإحسان كله . فكان يقرأ لها ويدللها ويحضر لها ما تطلب من دواء . ولو أنه لم يكن ممن يوصى باللجوء إلى العقاقير وكان يقول لها : أولى لك ثم أولى أن تقللى من العقاقير وأن تكثرى من مقادير اللحم » .

أما الرغبة التى لا تجاب أبداً فهى أن ترى فى صحبة واحد سواه .

وكان « مستر باريت » شديد الغيرة إلى حد الجنون على أولاده . فهو لا يسمح أبداً بأن يشاركه فى حبهم غيره . فهو لم يدع إلى طعامه أحداً . ولم يسمح لأولاده أن يدعوا إلى طعامهم كائناً من كان . حتى لا يتحدثوا أو يتحدث إليهم كائن من كان . أما الأحاديث التى تجيئهم عن طريق الكتابة والكتب فهى أحاديث قد مرت تحت سمعه وبصره فراقبها وأقرها .

وفى رقابته على مخالطى أليزابيث قد أجاز أبوها استثناء واحداً

وهو صحبتها لكلب صغير من كلاب الصيد واسمه Flush .

وكان هذا الكلب مستبداً كثير التجنى فإذا سمينا مستر «بارت» المستبدالكبير وجب أن نسمى Flush المستبد الصغير . وكان Flush فى طعامه كثير التشهى كأنه إحدى السيدات المدللات . فإذا لم يعجبه الطعام ولى وعلى محياه دلائل الترفع والازدراء .

وكان لا يأكل لحم الدجاج ولحم الخراف إلا مشوياً . لا مسلوقاً . وكان يعاف القهوة إذا لم تصحبها الفطائر . وكان لا يأكل «البسكوت» إلا معجوناً بالزبد والسكر . وكانت شرائح اللحم تقطع قطعاً صغيرة لكى يستطيع أن يستعمل الشوكة . وإلا فلن يذوقها .

وبالرغم من هذا كله فقد كان هذا الكلب سلوة أليزابيث الدائمة كما كان مصدر قلق دائم لا ينقطع .

وكانت له طريقة فى أن يبيح للناس خاطفى الكلاب أن يخطفوه . وكانت أليزابيث تقول : إنى لعلى يقين أنه يفعل ذلك عامداً .

وكان أولئك الخاطفون يصرون فى كل مرة على أن يردوه لقاء فدية لا تقل عن عشرة جنيهات .

وكانت أليزابيث جد سعيدة بأن تدفع الفدية لتسترجع ذلك المستبد الصغير وتعيده إلى موطن سيادته بين آل « باريت » .

وكانت هذه السيادة كسيادة مستر باريت تشوبها الأنانية والرغبة فى الاستئثار بحب أليزابيث . فكان ينبح كلما دخل البيت داخل . وكان يرى أن لا يقف أحد فى سبيل استئثاره بها حتى لو كان ذلك الواحد ذلك الشاب الجميل الذى كان يدخل البيت أحياناً على حين غفلة من مستر باريت .

وكانت هذه الحالة لا تعجبه وكان يعبر عن سخطه بالنباح . وليته كان يستطيع الكلام إذاً لحذر مستر باريت وأنذره . . .

ولكن مستر باريت ظل — لحسن الحظ — غير عالم بأن بنته تفسح فى بيته مكاناً لزيارات شاعر شاب . وكان كذلك غير عالم بأن هذا الشاعر قد كان بينه وبين بنته رسائل قبل أن يتلاقيا — فى أول زورة — ببضعة شهور . وكانت هذه الرسائل ثانى اثنين من أسرارها التى أخفتها عن والدها وهما : الكتب الممنوعة والحب الممنوع . فقد وصاها أن تنأى بجانبها عن ذلك الجانب من « المكتبة » وعن ذلك الجانب من « الحياة » . ولكن كان من تدابير القدر أن يفلت من الرقابة أحياناً « كتاب ممنوع » « وشخص ممنوع » وهذان الممنوعان كانا : كتاب « عصر العقل » و « الشاعر روبرت برونتج» . وبذلك وجد « المنطق » و « الحب » طريقهما إلى السجن الذى تقيم فيه أليزابيث باريت. وكان السجان عن ذينك الممنوعين من الغافلين .

وكانت أليزابيث يتولاها الذعر كلما فكرت فى العاقبة إذا صحا

السجان من نومه . وأفاق من غفلته .

وطالما حاولت أن لا تشجع « روبرت برونج » على زيارتها وعلى إرساله الرسائل لها . لا كراهة منها – فقد كانت هذه الرسائل والزيارات مصدر سعادة لها لا تحد – ولكن خوفاً من عاقبة تلك الأمور إذا علم أبوها . فقد كانت وصيته الوحيدة : يجب أن لا تفعلى . . . وهذه الوصية يجب أن تطاع فى كل حين، وبخاصة فى هذا الوقت . ذلك لأنها قد أغضبته مرة من قبل بأن أصرت على الذهاب إلى شاطئ البحر فى رحلة ومعها أخوها « إدوارد » وكان هذا أحب إخوتها إليها . وكانت تدلله فتدعوه « Bro » وهو اختصار لكلمة Brother وكان هو يدعوها Ba وهو اختصار لكلمة Baby وكان هذا الاخلاص فى الصحبة بين Bro و Ba حديث القوم فى بيت « باريت » .

ولكن عند ما اقترحت أليزابيث أن ترحل مع أخيها فى رحلة إلى شاطىء البحر فى « توركى » تميز أبوها من الغيظ . وقال إن من الجنون الذى ليس بعده جنون أن ترتحل المرأة فى أيام عطلة أو أجازة . ومن سمع بذلك من قبل؟ ولكن أليزابيث أصرت وألحت فى أصرارها . ورضى لها أبوها ذلك فى النهاية . وقال لها : حسناً يا أليزابيث والمسئولية فى هذا على عاتقك . . .

فقالت له أليزابيث : سأتحمل مسئولية هذا يا أبى . . .

وسار أدوارد فى صحبتها إلى « توركى » . وركب يوماً زورقاً

شراعياً مع واحد من أنداده وسرعان ما فوجئت اليزابث بعاصفة من الصراخ والزعيق وسرعان ما قذف البحر بجثى الشابين إلى الشاطىء .

ومنذ ذلك الحين يتولى اليزابث الفزع القاتل إذا فكرت فى مخالفة أوامر والدها ونواهيه .

ولذلك فقد تلقت باحساس من الفرح يخالطه الضيق والقلق أول كتاب جاءها من مستر روبرت بروننج . وكانت قد أصدرت منذ قليل جزءاً من ديوان شعرها . وهذا الشاعر الشاب النابغ حقاً والذى يفوقها شاعرية قد كتب لها يقول فى كلمات تشع ضياء : « إنى أحب أشعارك حباً لا يدانيه حب » . بهذا استهل الشاعر خطابه . فأمسكت صاحبتنا عليها أنفاسها ثم مضت تقرأ : « إنى أعيد القول إنى أحب هذه الأشعار حباً لا يدانيه حب. أيتها العزيزة الآنسة باريت. وكذلك أحبك أنت...

وأعادت هى قراءة الكلمات الأخيرة : وكذلك أحبك أنت . . . وهى كلمات ظريفة من واحد من الآلهة الشبان الظرفاء . ولكن هذه كلمات خلت من المعنى . ما فى ذلك شك ولا ريب . فهما لم يتلاقيا من قبل . ويبدو أن مستر بروننج لم يكن يعرف أنها كسيحة وأنها امرأة — فى رأى نفسها — قاتلة . فقد ساقت أخاها إلى حتفه بمخالفتها إرادة أبيها مخالفة لا تغتفر .

وعلى هذا فلا ينبغى أبداً لمستر بروننج أن يأتى ليراها . ولا

ينبغى له أن يضل فى أمرها . ويجب — كرامة لمستر برونتج وكرامة لوالدها — أن يبقيا . لا تجمع بينهما صلة . وأن تكون بينهما فلاة إلى غير اللقاء تجاب .

وكان مستر برونتج يضمر لها الخير كله . وكان غاية فى القوة . وكنت تعرف فى وجهه نضرة النعيم . وكان يصغرها بخمس سنين . فقد كانت حينئذ تهدف إلى الأربعين . وكانت صلتها بالقبر صلة الجار الجنب . فكيف تلزّ فى قرن تلك العليلة المريضة المسنة وذلك الشاعر القوى الملهم .

وفضلاً عن ذلك فماذا يظن والدها فى هذا النوع من الصحبة حتى على فرض إمكان تلك الصحبة ؟ وقد سبق لوالدها أن أبدى رأيه فى هذا النوع من الصحبة . فى حالة أختها « هنريتا » . فقد تجرأ ضابط شاب أن يدخل البيت ليراها . ولقيه أبوها فى البيت يوماً ما لقاء غير متوقع فطرده شر طردة .

وكان بالمستر باريت مس من جنون ضد أى نوع من أنواع الابتهاج يبدو على بناته . ذلك لأن الابتهاج — وهو خاطر من الخواطر المزعجة — قد يؤدى إلى الزواج . وكان هو يعتقد اعتقاداً جازماً . أن زواج بناته هو أشنع الجرائم الدنيوية .

وكانت كراهة الزواج غريزة من غرائز هذا الرجل الفطرية. مع أن حياته الزوجية كانت أقرب إلى الحياة السعيدة . ولكن — وقد ماتت زوجته — فإنه يعتبر نفسه زوجاً لبناته .

والويل لمن تجسر منهن على التفكير فى الضماد بزواجها من رجل آخر .

من أجل ذلك ظلت اليزابيث — وهى تستمع إلى غزل برونج فى رسائله — تتردد بين لا ونعم . وكتبت له مرة تقول : «قلت لك فى الليلة الماضية . نعم . واليوم أقول لك يا سيدى . لا. ذلك لأن الألوان التى تراها فى ضوء الشمعة تختلف ماهيتها إذا رأيتها فى ضوء النهار» . .

وما يبدو ممكناً فى ضوء الرواية التخيلية يبدو بعيداً عن التصديق فى ضوء غضب والدها .

ثم توالت رسائل برونج وقد برّح به حبها وزاده جوى فكتب إليها يستعطفها أن تسمح له بزيارتها . وكان جوابها دائماً أن تلك الزيارة يجب أن تؤجل إلى يوم آخر أو إلى شهر آخر أو إلى عام آخر .

فتكتب له مرة أنهما سوف يلتقيان فى الربيع فإذا كتب لها أن الربيع قد جاء مبكراً فى شهر فبراير . كتبت له تقول إن ربيعها يبتدئ متأخراً فى شهر مايو . . .

فلما ظفر منها آخر الأمر بموعد مضروب ترددت ولامت نفسها على ما بدا منها من طيش وما بدر منها من رعونة . وقالت لنفسها : لقد كنت طائشة فى البداية . وظل الطيش يلازمنى . فتنكبت الجادة والطريق السوى وسرت أتخبط والأشواك تدمى قدمى.

وأخيراً وفى يوم ٢٠ مايو من عام ١٨٤٥ أتيح لبرونج أن يجيء إلى شارع « ويمبول » . وكتبت له أليزابيث تقول : إن وقت الزيارة يجب أن يكون بعد الساعة الثانية وقبل السادسة . فقد كان « مستر باريت » يعود دائماً من عمله فى المدينة فى الساعة السادسة . ويجب أن لا يلقى مستر باريت هذا الشاب الغريب فى بيته .

فوصل برونج فى الساعة الثالثة . وكانت أول تحية تلقاها : نبحة بل زمجرة من جانب كلب أليزابث . ولكن اليزابث هدأت من روعه وأسكتته . فجلس الكلب ونظر إلى برونج نظرة ملؤها العداوة والبغضاء . بينما كان الشاعران يتنقلان بين مختلف مواضيع الحديث . إلا ذلك الحديث الذى هو أقرب إلى قلبيهما . ثم اعتاد الكلب حضور هذا الدخيل . ذلك الدخيل القوى النشيط الذلق اللسان والشاب الحبيب إلى قلب سيدته . فقد كانت زياراته لها تفعل فعل الدواء المقوى المنعش لهذه السيدة الكسيحة .

وفى ضوء تشجيعه نهضت اليزابث من فراشها وسارت خطوات إلى المكتبة . ثم حدثت معجزة المعجزات . . . فقد سارت وإياه مسافة قصيرة فى الشارع وكان يسير فى أعقابهما Flush يهز ذيله . وكان الكلب قد بدأ فعلا يستخف ظل هذا الشاب . وعلى أية حال فقد كان استبداد Flush أخف وطأة

من استبداد مستر باريت .

وكان من دواعى الحظ السعيد أن مستر باريت لم يكن يعرف شيئاً عن زيارات برونج لابنته . وقد سعى هذا مرة أو مرتين ليلقاه وكان يقول : « إنى لواثق أنى إذا تحدثت إليه فسوف أجعله لا يعارض فى أن نكون صاحبين » .

ولكن أليزابيث كانت تعرف أباها وكانت تقول لصاحبها : « يمكنك أن تزيل ثلث نجوم السماء بحركة من أهداب عينيك. ولكنك لن تستطيع أن تجعل مستر باريت يرضى عن صحبتنا » .

فاضطرا لذلك أن لا يبوحا بسرهما لوالدهما . ثم انزلقا فى سرعة من درجة « الشعور بالصحبة » إلى درجة « الصحبة » ومن درجة الصحبة إلى درجة « الحب » . وكانا يكتب كلاهما لصاحبه عقب كل زيارة كل كلمة لم يجرؤا . أن يجهرا بها وهما ملتقيان .

فكتب إليها كلمة اعتراف فى واحد من خطاباته يقول فيها : « لو استطعت أن أنبئك . . . أن أنبئك ؟ أية سعادة عليا سوف أحظى بها يوم أظفر . . . مهما يكن هذا اليوم بعيداً . . . .

وأجابته هى بقولها — لو أنى كنت أختلف عما أنا فيه فى بعض حالاتى. . . ولو أنى كنت حرة فى الحالات الأخرى . . . إذن لتمنيت أن أتقبل بالسرور هذه المنحة الكبرى . منحة سعادتك . . . أقول — لتمنيت . . . ولا أقول — لتقبلت . . .

ذلك لأنها كانت لا تزال مترددة . وكانت تقول — لو كنت أختلف عما أنا فيه . . . ولو كنت حرة من القيود . . . ولو كنت أصح جسما وأقوى إرادة . . .

وكانت تظن أنها قطعت فى طريق المرض شوطاً طويلا . وكانت ترتب على هذا الظن أنها لن تستطيع أبداً الاستمتاع بسعادة الحياة الزوجية .

ومن مأثور قولها له فى ذلك :

« لقد تلاقينا متأخرين فمن البعيد جداً أن نتلاقى أيها الصديق . ولا أكثر من صديق . . . إنى أحس أن كفنى المرتقب يلف حول قدمى . فاذا خطوت أنا أو تحركت أشرفت على النهاية . . . »

ولو كانت قوة صاحبتنا البدنية تتيح لها أن تقبل أن تكون له زوجة فان إرادتها المقيدة لا تتيح لها ذلك . فقد عصت والدها مرة فأفقدته ولداً من أولاده . وهى لن تجرؤ أن تعصيه مرة أخرى فتفقده بنتاً من بناته . . .

ولكن برونج ظل متحمساً فى مطارحاته الغرامية . وأخيراً رضيت أليزابيث بأن تتزوجه . وأصرت على أن يبقى هذا الزواج سراً لا يباح به. وقالت لو أننى اخبرت والدى بهذه النية إذن لتمنى أن يرانى ميتة تحت قدميه . وانه ليقول هذا القول . وانه ليعنى ما يقول. . وإنه ليمعن فى ما يعنيه . . . وهذا هو ما وقع فعلا من

والدها عندما ركبت أليزابيث رأسها وأقلعت السفينة بها إلى إيطاليا وهى . «السيدة أليزابيث باريت برونج » . فقد قال : « إن بنتى الآن فى قبرها . فلننس الأموات . . . »

وأصبحت أليزابيث فى جو جديد من السعادة . وفى ذكرى قديمة من الحزن والأسى . فإن شبح طغيان والدها يحوم حولها ويطوف بها أينما ذهبت .

وكانت تضيق أنفاسها قبل زواجها بنقيقه الدائم وصخبه الذى لا ينقطع . والآن فان أنفاسها تضيق بسكوته الدائم وصمته المطبق . وقد كتبت له ألف مرة ومرة ترجوه الصفح وتسأله المغفرة . ولكنها لم تظفر بكلمة منه .

ولكن سعادتها أتاحت لها أن تنسى حزنها أحياناً . وكان برونج لا يفارقها أبداً . وأصبحت الآن تستطيع أن تمشى . ولكن زوجها الشاعر كان يصر دائماً على أن يحملها إلى الدور الأعلى استمتاعاً بلذة حملها . واستقر بهما النوى حيناً ما فى « بيزا » . وكان ذلك الزمن زمن اللعب غير المقيد بالقيود لهؤلاء الثلاثة. أليزابيث وبرونج و Flush . وهم الثالوث الفاسد . . . وقد سار الكلب سيرة سيده وسيدته فكان يطوف بشوارع « بيزا » يصادق الكلاب الإيطالية ويخادنها . ويرجع إلى البيت . وفى قلبه صنوف من الحب وأشكال وفى جسمه صنوف من البراغيث وأشكال . . .

ولا يلبث الصاحبان أن يمسكا بكلبهما ويضعاه فى الطشت ويحكا جسمه ويمشطا شعره ويغرقاه بوابل من التدليل والتنكيت والضحكات .

وكانت فترة اقامتهما هناك فترة راحة واستجمام وخلو بال . فلا متاعب منزلية . ولا قلق . ولا تفكير فى المسائل المالية فقد كان لهما دخل يبلغ ٤٠٠ جنيه سنوياً . وهو مبلغ يزيد على حد الكفاية لهذا المنهج من العيش الذى اختطاه لأنفسهما وهو عيش التشرد . وكان طعامهما يأتيهما من مطعم قريب . وقوامه : البيض والقهوة للفطور والطير ونبيذ « كيانتى » للغداء . والقهوة والفطائر المعجونة باللبن للعشاء . وتصبيرة من العنب « وأبو فروة » المشوى فى الساعة التاسعة مساء . أما الكلب Flush فطعامه شواء الضأن والجبنة الدسمة المملحة والفطائر المسكرة . وهكذا عاشوا عيشة جافاها العناء وجانبها القلق .

وهكذا كان الجو الذى كان ينتجان فيه قصائدهما المذهبة . وقد دست أليزابيث ذات صباح فى جيب صاحبها إضمامة صغيرة تحتوى على أربع وأربعين مقطوعة غنائية . وقالت له : أرجو أن لا تقرأها قبل أن أغادر هذه الغرفة .

فنظر هو فى هذه الأشعار . وكان موضوعها رؤيا مخلوق كسيح يعود إلى الحياة بعد أن عانى سكرات الموت . أو التغلب على الموت بقوة الحب . وكانت هذه الأشعار تدور حول

بعاث أليزابيث وحول استبدالها نصيباً فى جنة الخلد بنصيبها فى سعادة هذه الدنيا .

وقرأ هو المقطوعات مرة أخرى . فألفاها نوعاً من فرط تدفق من قلب مفعم بالحب . وقد كتبت هذه الأشعار لتقع عليها عينه هو . لا عينا واحد سواه . ومع ذلك فقد كانت تبدو على تلك الأشعار خصائص التعميم . فهى تمثل انتصار الحب لدى كل محب . وفى هذه الأشعار ثروة ليست وقفاً عليه هو . بل هى ملك مشاع لكل أبناء هذه الدنيا . فليس من حقه إذن أن يخفيها عن الناس .

ورفضت أليزابيث أول الأمر فكرة نشر تلك الأشعار وقالت : « هذه الأشعار يجب أن تبقى سراً خاصاً بنا . حكمها حكم رسائل حبنا » .

هو — ولكنها أيتها العزيزة أبدع مقطوعات منذ عصر شكسبير .

هى — هذا سخف . . . أنك تكبر من شأنها كما تكبر من شأنى فحاجها وبين لها ما فى تلك الأشعار من حلاوة وعذوبة وألح فى وجوب مشاركة بنات جنسها لها فى تلك العذوبة ومقاسمتها تلك الحلاوة . ثم قال لها . لا حق لك فى حبس ذكائك ونبوغك كما لا حق لك فى حبس أموالك عن السائل والمحروم .

وأخيراً نزلت على حكمه وقالت : إن لله فينا مشيئة أن ننفق

من ثمرات ما وهبنا . ومما رزقنا من « أموال قلوبنا على المحبين فى العالم » .

ولكن يجب أن تنفق هذه الثروة على أنها فلسفة «لاشخصية» لا على أنها « انفعالات شخصية » .

وأضافت إلى ذلك قولها . وبعد كل شيء فإنك لن تستطيع « تشريح » قلبك ليكون هذا القلب مجالا لتفكير أصحابك وتأملاتهم . فلتبد هذه الأشعار على أنها أشعار مترجمة من لغة أجنبية . كأن نسميها : « مقطوعات مترجمة عن اللغة البوسنية ». إذ لا أحد يعرف « اللغة البوسنية » ولذلك فلن يستطيع أحد أن يكشف سرها . فما قولك فى هذا ؟

ولكنه اقترح عنواناً أفضل وأحسن بأن يسميها : « مقطوعات مترجمة عن اللغة البرتغالية » . ثم قال : وسوف يظن الناس أن الأشعار كتبتها « كاترينا » إلى « كاموانش » (شاعر برتغالى) ولم تكتبها « أليزابيث» إلى « بروننج » .

وهكذا ظهرت تلك المقطوعات تحت عنوان : « مقطوعات من البرتغالية » . فقال النقاد : « أنها مجموعة من أبدع المجموعات المترجمة فى تاريخ الآداب . . » . وكان النقاد على حق . فقد كانت هذه المقطوعات أبدع ترجمة للقبس الالهى فى كلمات إنسانية، ذلك لأنها تمثل حالة من حالات الدوام فى عالم من الأشياء لا يعرف الدوام . . . أو بعبارة أخرى إنها تمثل الحب

الذى يبقى ويدوم . فى حياة لا تعرف البقاء والدوام . . .

ثم سافر الصاحبان من بيزا إلى فلورنسة ومن فلورنسة إلى جبال « فلومبروزا » حيث وجدوا الأشجار العالية التى تتنفس من عبير السماء . وحيث وجدوا « البسكوت » الذى لا يختلف طعمه ومذاقه عن « نشارة الخشب » . وحيث تقف اللقمة فى الحلق كما وقفت كلمة « آمين » فى حلق ماكبث . . . وعلى الرغم من ذلك فقد تمنّيا لو استطاعا أن يبقيا شهوراً أخرى ليستمتعا بمناظر الجبال . ولكن رئيس الرهبان فى « فلومبروزا » طردهما بعد خمسة أيام . ذلك لأن رهبان هذا الدير . « دير الظلال والأشباح » خافوا الفتنة على أنفسهم : وهؤلاء الرهبان كانوا لا يخافون إلا ثلاثة أشياء — الكلاب والخنازير والنساء . وكان النساء فى نظرهم أكره الحيوانات جميعها . وكانوا يقولون : « أولى لنا أن ننظف بأيدينا . وبلا فأس ولا مجرفة زريبة الخنازير من أن نمس إصبعاً من أصابع امرأة . . .

وتقبلت أليزابيث هذه الإهانة وهذه الشتائم بالابتسام والرضا وقالت : لقد طردنا من جنة عدن . . . ألم يأخذ « ملتون » وصفه لجنته من مناظر « فلومبروزا » ؟

ثم عادا إلى فلورنسا . وهى المدينة التى يعجز لسان الناس ولسان الشعراء عن وصفها . وهى أجمل المدن . ونهر الأرنو الجميل يشق صدرها . كأنه سهم من السهام . . .

وهناك فى الغرف الباردة من قصر « جويدى » وصلا فى سعادتهما إلى القمة . فقد ولد لهما ولد : وكان ذلك بعد ثلاثة أيام من عيد ميلادها الثالث والأربعين . وكان طفلاً جميلا كأنه قطعة الحلوى . وكانت ذقنه ملأى بالنونات .

وقالت اليزابث وهى تبتسم : يكاد المرء لا يصدق أن هذا الولد القوى المتين هو ولدى أنا . . .

واستمدت اليزابث من مولودها الجديدقوة جديدة . فليست هى بعد الآن نؤوم الضحى . يقوم على خدمتها الخدم . بل هى الآن أكثر أهل البيت حركة وأقلهم راحة . فكانت تدعو إلى الصحو المبكر والى النزهات فى « بانيى دى لوكا » وفى « سبتزيا » وفى الصخور المرمرية فى « كرارا » . وإلى صعود الجبل على ظهر حمار . وإلى الرحلة إلى البندقية وميلان وجنيف وباريس وأخيراً إلى لندن لكى تحاول أن تسترضى أباها . . .

وقد كتبت لأبيها ألف مرة ومرة ولكن هل يرد القبر جواباً . وكتبت له تحدثه حديث ولدها « ويدمان » وكانت تسميه « بنينى » وجاءته هذه التسمية من محاولاته نطق اسمه . ثم تحدثه حديث استباقه مع الكلب Flush ليلتقطا الأشياء التى يلقيها والداه على الأرض . ثم تقول له عنه . إن هذا العفريت الصغير كثير العفارة والشيطنة . فهو يقلب آنية الماء ويبل نفسه (وهذا ما يسره ويبهجه) . وهو ينسز قش المكنسة ثم يقص أجمل أثوابه

بالمقص . وهو يضحك بملء فيه كلما استطاع أن يرتكب خطأ من الأخطاء .

ثم كتبت لوالدها تقول : وقد يجلس هذا الطفل أحياناً هادئاً على ركبة أمه . وهو ينصت لعزف والده على البيانو مقدماً فمه الصغير يستقبل القبلات كل دقيقتين . . .

وكان جواب كل هذه الخطابات ــ السكوت ــ ولا شيء غير السكوت . . . فلما جاءت اليزابث إلى لندن رفض والدها أن يراها . وأمر الخدم أن يقولوا لها : إذا جاءت يوماً إلى بيته ــ إنه ليس فى البيت .

وهذا الرفض النهائى المخيب للأمل من جانب والدها . الذى مازالت تعجب به إعجاباً أعمى كان ضربة قاضية عليها . فعاودها المرض والهزال . وقد أضر ضباب لندن برئتيها فعادت إلى باريس ثم إلى إيطاليا وعادت أيضاً إلى التعزى والتسلى بالكتابة

وعلى الرغم من انحراف صحتها أو قل ــ بسبب انحراف صحتها ــ ذلك لأنها كانت تحس أنه لم يبق من أيام عمرها إلا القليل ــ أخذت تعد العدة لكتابة أشهر كتبها وأبعدها صوتاً . وهذا الكتاب هو رواية شعرية سمتها « Aurora Leigh » وهو اسم بطلة الرواية . وهى رواية تمثل ــ إلى حد كبير ــ قصة حياة المؤلفة .

والشعر فى هذه الرواية . كالشعر فى « مقطوعات من اللغة

البرتغالية » قد كشف – كما يقول روبرت براونج – عن طبيعة جد ملائكية تصدر عن قلب فيه قبس من النور الآلهي .

وقال نقّاد كثيرون مثل هذا القول . فسماها « باري كورنوال – « أجمل شعر كتبته امرأة منذ قيل الشعر » .

وقال « ولتر سافدج لاندور » – . « لست أعلم أن أحداً قد قال شعراً أو يستطيع أن يقول شعراً كهذا الشعر فى أى عصر من العصور . ولقد أصبحت به نصف سكران .

وقال جون رسكن وقد بالغ فى مديحه – « إنى أظن أن Aurora Leigh هى أجمل قصيدة فى اللغة الانجليزية . لا تفوقها إلا قصائد شكسبير . بل أنى لأقول إن قصائد شكسبير ليست تفوقها . وهى لذلك أجمل قصيدة فى اللغة الانجليزية .

وقرأت اليزابث هذه التقاريظ فأحست بالزهو . وهزت رأسها فى ابتسامة . وقالت – ياالعمى النقاد . . . إنهم يعجبون بضوء هذا الشعر الذى يشبه ضوء المصباح الضئيل وقد عميت عيونهم عن جمال شعر زوجها الذى – إذا قيس إلى شعرها – كان بضوء الشمس أشبه .

وهذه هى الغباوة . وهذه هى قلة الانصاف التى يحكم بها كل من جلس للحكم بين المتبارين فى هذه الدنيا .

ثم قالت – وسيجىء ذلك اليوم الذى يمدحونه فيه . وهو الذى يستحق المديح أكثر منى عشرين مرة .

ولكنها لم تعش لترى ذلك اليوم . فقد انهارت صحتها فى سرعة جارفة . وقابلت هذا الانهيار بالهدوء والرضا . لولا ذلك الحزن الذى ران على قلبها . ذلك الحزن الذى انبعث من سكوت والدها وصمته .

ثم انقضى عهد الصمت وجاء خطاب من والدها . ومعه رزمة . ففتحت الخطاب وقد تولتها رجفة . وكان الخطاب يحتوى على كلمة موجهة إلى براوننج . وهى كلمة مختصرة . واضحة المعالم والحدود . قال فيها : فى هذه الرزمة ستجد الخطابات التى أرسلت إلى من زوجتك . وسترى أن جميع تلك الخطابات قد بقيت مقفلة . كما بقيت أختامها سليمة لم تمس .

ثم مات والدها بعد قليل . وقد أصابت أخبار موته أليزابيث بنكاس لم تبرأ منه أبداً .

وجلس براوننج إلى جانب سريرها . وكان قد مضى على زواجها أربعة عشر عاماً . وقد بدا لها أن هذه الأعوام قد مرت وكأنها أربعة عشر يوماً أو كأنهما أسبوعان قصيران من شهر العسل . ولكن شهر العسل عندهما لم يكن قد انقضى . فما زالا يتوقان إلى المزيد من الشعر . وإلى المزيد من الإخلاص والتفانى.

وكان يدخل السرور على قلب أليزابيث أن ترقد فى حمى عينى زوجها الحارستين . ثم مدت ذراعيها إليه . فضمها إليه ضما قوياً . فأغفت إغفاءة . فلما أفاقت والفت نفسها بين

ذراعيه ابتسمت وقالت — إنك بى حفى يا روبرت . ثم لما ران على عينيها الكرى مرة أخرى . قالت له — لو استطعت أن أبقى كذلك بين ذراعيك إلى الأبد . . .

فاستعاد روبرت قولها . . . وكان جوابها أنها ألقت برأسها على خده . ثم أغمضت عينيها مرة أخرى . فلما أعاد عليها القول مرة أخرى كان السكوت جواب قوله . . . »

سوزان برونل أنتونى
١٨٢٠ – ١٩٠٦

لم تكن « سوزان أنتونى » كسائر الأطفال . وقد قالت معلمتها الآنسة « دبورة مولسون » : إن فتيات القرن التاسع عشر يجب أن يسلكن سلوك الفتيات فى جميع القرون الأخرى . وإن حرمة التقاليد يجب أن ترعى .

ولكن « سوزان » تفعل ما تشاء ولا تؤمن بالتقاليد . ولها عقلها الخاص بها . وهذه كلها جرائم لم يسمع بها فى « الكلية المختارة للبنات » التى تديرها « الآنسة مولسون » فأن المنهج فى تلك الكلية يقوم على دعائم ثلاث قد أضفى عليها الزمن رداء من التوقير والتشريف وهى : الخلق الطيب وحب الفضيلة وفوق ذلك الخضوع . ولكن سوزان لا تعرف الخضوع . وقد حاولت هى ذلك فلم تفلح .

والرأى عند « دبورة » أن الأطفال يجب أن لا يسمع الناس لهم صوتاً ويجب أن لا يروهم إلا قليلا .

ولكن سوزان كانت تحب أن يسمعها الناس وأن يروها . وقد ضحكت يوماً ضحكة غير رزينة . فقالت لها « دبورة »

أيتها الخائنة تذكرى مصير « يهوذا الأسخريوطى . . . »

وكانت الخطابات التى تكتبها الطالبات لآبائهن يجب أن تمر على الآنسة مولسون فهى الرقيبة عليهن . ولكن سوزان أعدت خطاباً ضمنته بضع معلومات خاصة وحاولت أن تبعث به إلى أبيها قبل أن تراه عين الرقيب . ولكن « دبورة » قطعت على الخطاب الطريق . وقد كان الدمع يفيض من عينى « سوزان » سنين عدداً بعد هذا الحادث كلما خطرت ذكراه ببالها .

ثم إن سوزان قد انحطت إلى الدرك الأسفل من سوء السلوك يوم وقفت على مكتب « مولسون » فكسرته وهى تحاول أن تزيح عن سقف الغرفة ما نسجته العناكب .

وكانت هذه جريمة لا يكون عقابها أقل من التعنيف والتشهير أمام تلميذات المدرسة جميعاً .

فجمعت الآنسة « مولسون » جموع المدرسة بعد أن قرأت — فى خشوع — فصلا من الكتاب المقدس . وأرسلت — بدعائها سوزان إلى جهنم التى لا تموت فيها ولا تحيا .

وقد ورثت « سوزان » عن معهد الآنسة مولسون . شيئين : أسلوب فى الأدب لا ماء فيه ولا رواء . ومجانبة كاملة لكل ما اصطلح عليه الناس . وأعانها على هذه المجانبة . ما ورثته عن أبيها من ثورة على الأوضاع . فقد خالف أوضاع مذهبه الدينى وقد كان من غلاة « فرقة الأصحاب » بتزوجه من بنت أحد

أتباع مذهب « المعمدين » . وكانت زوجته هذه تحب التحية الظريفة. كما تحب الملابس الجميلة . وكانت تغنى وهى تعمل ؛ وكان هذا يعد طيشاً ونزقاً فى الحلقة الثانية من القرن التاسع عشر . وكانت قبل زواجها ببضعة أيام ترقص حتى الساعة الرابعة صباحاً . وهى جريمة لا تغتفر فى تلك السنين . ثم تقدمت بها الأيام فأصبحت زوجة وأماً . دقيقة الحس . رقيقة الشعور . فورث أولادها منها دقة الحس ورقة الشعور كما ورثوا عن أبيهم الثورة والتمرد .

وقضت سوزان سنى حياتها الأولى فى جو من « العسر المالى المريح » . وكان أبوها مالكاً لمحلج صغير للقطن . وكان أكبر الأولاد يعاونون أمهم فى العناية بأخوتهم الصغار وكانوا كذلك يؤدون نصيبهم من العمل فى ذلك المحلج القائم فى بيتهم .

واتفق فى فصل من فصول الصيف أن والدة سوزان كانت مضطرة أن تعول فى بيتها أحد عشر ضيفاً . وكان على ذراعيها طفل رضيع . فلم تكن تلك الأم تجد يومئذ وقتاً للغناء وهى تغزل بمغزلها . أو وقتاً لملاعبة أطفالها . وكانت تصرف ساعات عديدة من النهار . فى الغسل والكى . وفى الحياكة والخياطة . وفى الخبز والطبخ .

وكتبت سوزان كلمة عابرة فى يوميات أمها : « لقد خبزت اليوم واحداً وعشرين رغيفاً . أما الترويح عن النفس فليس من

شيمة نساء العالم . فإنهن خلقن لأن يعملن الأعمال المنزلية . وقد كتب عليهن أن يخفن الخالق وأن يلزمن الصمت .

أما سوزان فلم تكن إحدى من كتب عليهن أن يلزمن الصمت . وقد خسر والدها محلجه فى وهلة من وهلات الفزع الذى حدث عام ١٨٣٨ فاضطرت أن تزيد فى دخل أهلها ريالين كل أسبوع كانت تكسبها أجراً لها كمعلمة . ولكن عقدها لم يجدد بعد نهاية مدته الأولى . ذلك لأنها كانت ترخى العنان لنفسها فى القول والعمل . وقد حذرت مرتين وأنذرت بأنها بصحبتها للعبيد تخاطر برزقها فلم تبال ولم تغن النذر . وأرسلت ترد عليهم وتتحداهم وتبعد فى التحدى وتقول : « لقد ظفرت اليوم بلذة لا تعادلها لذة بزيارتى لأربعة من ذوى السحنة السوداء وشربت الشاى معهم .

وكما كانت تكن فى نفسها إشفاقاً على القطعان السود من العائلة الانسانية فكذلك كانت تطوى ضلوعها على التحقير لكل مشاغب من البيض .

ونحن الآن نراها معلمة فى مدرسة أخرى . وهذه المدرسة كانت بؤرة من بؤر الفساد . وكان الأجلاف من الفلاحين الذين يرودونها إنما يقصدونها للهو والتسلية لا للتأدب والدرس . وسرعان ما وجدوا أن الآنسة سوزان كانت صيداً حراماً . وقد قومت يوماً ما اعوجاج زعيم أولئك الأجلاف بالضرب المبرح .

نظفرت منه ومن أنداده بالاحترام والتوقير . وقالوا : لقد أوتيت هذه المرأة أعصاب رجل وعقل رجل . . .

ونحن نراها الآن ناظرة قسم البنات فى كلية « كاناجوهارى » بولاية نيويورك . وقد خلبت عقول أهل تلك القرية . وقال أحد وكلاء الكلية : إن هذه المرأة هى أذكى رجل جاء إلى « كاناجوهارى » .

وعرض كثير من وجوه القوم المحليين الزواج بها . وقد دفعهم إلى ذلك إعجابهم بجرأتها . وقال واحد منهم وكان مالكاً لمزرعة فيها ستون بقرة : سوف تكون هذه المرأة بارعة فى حلب الستين بقرة .

ولكن سوزان رفضت فى أدب ولكن فى إصرار لا يعرف الهوادة عرض هذا الرجل كما رفضت عروض الخطاب الآخرين. وقالت لهم فى رفضها : لست أريد أن أكون خادمة شرعية لأى رجل .

وفضلت أن تصر على استقلالها . وكانت تستطيع السعى لعيشها بما أوتيت من قوة فى البنية ومتانة فى الألواح . ولكن ماذا يعملن أولئك الملايين من النسوة اللائى لم يرزقن الشجاعة والقوة الكافيتين للصمود أمام عالم من صنع الرجال الظالمين ووحيهم .

وفى صيف عام ١٨٤٨ قرأت عن مؤتمر عقد فى « سينيكافولز » بولاية نيويورك . وقد اجتمع فيه النساء لبحث

المسائل الخاصة بحقوقهن الاجتماعية والمدنية والدينية . وقد أغرتها الفكرة . وبدأت تدرس القوانين الاجتماعية والمدنية والدينية الخاصة بالنساء فى الولايات المتحدة . وقد هالها ما قرأته فى تلك القوانين خاصاً بحقوق المرأة . فقد جعل القانون فى امريكا وفى كل بلاد أخرى المرأة فى أدنى مكانة ومنزلة بالقياس إلى الرجل .

وقد قضى هذا القانون على كل امرأة أن لا تبلغ سن الرشد أبداً وأن لا تستمتع بحقها الشرعى . فإذا تزوجت أصبحت ملكاً لزوجها . وإذا فاتها الزواج وجب أن يقام عليها وصى من الرجال ولم يكن مباحاً للمرأة أن تتقدم إلى القضاء تشكو « خلف الوعد » . ولم يكن لها حق أن تستبقى لنفسها ما كسبته من أجر على عملها . أو أن تطالب بالتعويض عما يصيبها من ضرر فى جسمها أو فى عرضها . وفى كل حالة من الأحوال كان الغنم للرجل . ولم يكن هو المتحكم فى مالها ومصيرها فقط بل كان المالك لأولادها . وكان يستطيع أن ينزل عن أولاده بغير رضاها وفى حالة الطلاق كان يمنح حق الرعاية على أولاده حتى لو ثبت أنه كان فاسقاً أو سكيراً .

وكان يباح للرجل أن يضرب امرأته وأولاده وكلبه . ولم يكن مباحاً للمرأة أن تطلب الطلاق من زوجها للضرر .

ومجمل القول أن المراة الامريكية كانت واحدة من جوارى الرقيق ولما أراد النساء أن يفككن عنهن الأغلال ويكسرن القيود

يقين من الرجال فى كل مكان عواء مستمراً . ونباحاً مزعجاً .

وقد وسم النساء اللائى حضرن مؤتمر « سينيكا فولز » بأنهن ملحدات . وبأنهن خنائى وبأنهن ضبعات لبسن ملابس النساء. ولم يعدم النساء نفراً قليلا من الرجال أقروا ما فعل النساء من إعلان استقلالهن . وكان أحد أولئك النفر من الرجال « دانيل أنتونى » والد سوزان . فقد كان ينظر إلى الذين كانوا يعملون فى محالجه نظره إلى المخلوقات الآدمية . أما فى المحالج الأخرى فقد كان ينظر إلى العمال والعاملات كأنهم آلات ميكانيكية . وكانوا يعملون ١٤ ساعة فى اليوم لقاء أجر زهيد . ويصدق هذا القول على الصناعات الأخرى التى يعمل فيها النساء . فكانت تؤجر الواحدة منهن على خياطة بذلة ثمانين مليما وعلى خياطة زوجين من السراويل أربعين مليما . ولكن أسوأ ما فى الأمر أن النساء العاملات إذا تزوجن حرم عليهن أن يقبض أجورهن بل أجبرن على تحويل أجورهن لأزواجهن . وكان أغلب الأزواج يبددون ما يكسبه نساؤهم فى الخمر وفى الانفاق على النساء الأخريات .

وكان أفراد عائلة « أنتونى » يبحثون هذه المسائل وهم على المائدة . وقد حدث سوزان والدها عن مؤتمر آخر لحقوق النساء عقد فى « روسشتر » وحضر هو اجتماعاته . وقص على بنته حكاية طريفة وهى أن إحدى خطيبات المؤتمر واسمها السيدة

أليزابث كادى ستانتون » جرى بينها وبين أحد القسيسين حو
طريف . فقد قال لها القسيس موبخاً ومعنفاً : .إن بولس الرسو
قد أوصى النساء بالصمت . فلماذا تخالفين أوامر الرسول ؟ »
فأجابته : إن بولس الرسول قد أوصى القسيسين بالعزو.
فلماذا خالفت أمره ؟

فضحكت سوزان لما سمعت القصة وقالت — لقد أحببت
السيدة « ستانتون » حباً جماً . وإنى لأود أن ألقاها .

وقد مرت بضع سنين قبل أن تلقى سوزان السيدة ستانتون
ذلك لأنه فى وقت انعقاد مؤتمر « سينيكافولز » كانت سوز
معنية بإصلاح الرجال أكثر من عنايتها بتحرير النساء .

ولما كانت ثائرة عاتية كأبيها فقد انضمت إلى القائلين
بتحرير العبيد وكذلك إلى القائلين بتحريم صنع المسكرات
وبيعها . وكان يبدو لها أن الاسترقاق وشرب الخمر مصيبتان
وكلتاهما فى الشر سواء . وكان رواد القائلين بمنع الخمر رجالا
قد جفت حلوقهم واستعصت بطونهم على النار . وكان الناس
كلهم يشربون . وكان أغلبهم يفرطون فى الشرب . فنى الوليمة التى
أولمت تكريماً « لدانيل وبستر » وكان عدد المدعوين ألفاً ومائتين
أفرغ القوم فى حلوقهم ألفين وأربعمائة زجاجة من خمر شمبانيا .
فكان ما خص كل مدعو زجاجتين وهذا المقدار من الخمر كان
فاتحاً لشهوة الطعام وكان المدخل إلى ما سيتلوه من الخمور القوية .

وكان هذا الافراط فى الشراب رد فعل للتزمت الذى ساد فى ذلك الزمن . فقد حرم ضمير أمريكا على الناس أن يلعبوا . فهب الناس وأجمعوا أمرهم على أن يغرقوا هذا الضمير فى طوفان من « الويسكى » . وكاد الناس جميعاً أن يكونوا من صفوة الصهباء . فكانوا — من العامل الأجير إلى القاضى فى منصة القضاء — يذهبون إلى أعمالهم تظللهم غمامة من السكر .

وهكذا كانت الأمور تجرى يوم انضمت « الآنسة أنتونى » إلى دعاة الاعتدال . وفى تلك الآونة لم تكن تعنى أقل عناية بمنح النساء حق التصويت . بل لم تكن تعنى حتى بمنح الرجال حق التصويت . . . فقد نشأت فى بيئة « فرقة الأصحاب » وكان هؤلاء القوم لا يؤمنون بمسألة التصويت . ولكن أفراد عائلة « أنتونى » كانوا يؤمنون بحق التعبير بالكلام عما يجول فى خواطرهم وكانت سوزان أكثرهم إيماناً بهذا الرأى .

وحضرت ذات يوم من أيام عام ١٨٥٢ مؤتمراً لحركة المعتدلين ووقفت تحاول أن تخطب القوم فبادر الرئيس بإسكاتها وقال لها فى صراحة صاخبة — يجب على النساء أن ينصتن ويتعلمن ولكنه لا ينبغى لهن أبداً أن يتكلمن .

ثم اقتيدت إلى خارج مكان الاجتماع . فحز فى نفسها هذا العمل الذى ينافى شهامة الجنس المتحكم من الرجال .

وقالت — ما دام قد امتنع الاحترام الواجب تبادله بين النساء

والرجال . فعلى النساء أن يطالبن بالمساواة فى الحقوق .

وفى ذلك اليوم ولدت حركة مساواة النساء بالرجال . وانضمت « سوزان أنتونى » إلى تلك الحركة ولم تلبث أن أصبحت واحدة من قادتها . ذلك لأن النساء كلهن عرفن فيها الذكاء الخارق والشخصية القوية . ومع ذلك فقد كانت هى تعرف حدودها وكانت منظمة من الطراز الأول . ولكنها لم تكن كاتبة قديرة . ولا خطيبة بليغة . ولذلك فقد شدت أزرها . وأكملت نقصها باثنتين من قائدات الحركة فى ذلك الحين وهما — « أليزابث كادى ستانتون » و « إرنستين روز » . وألف أولئك الثلاث « حاملات البنادق » ما يمكن أن يسمى « أول حكومة ثلاثية نسائية » فى التاريخ .

وكانت سوزان ترسم خطط المعارك . ذلك بأنها كانت العضو الأكثر تشبثاً بالطرق العملية فى حكومة النساء الثلاثية .

أما أليزابث ستانتون ذات الموهبة الشعرية فكانت تضع الخطط فى إطار من الكلمات ذات الأجنحة . وأما « إرنستين روز » التى أوتيت فصاحة القول فسميت « ملكة الرصيف » فكانت تلقى الخطب . وكان هؤلاء النساء الثلاث جد مختلفات من حيث المركز المالى والاقتصادى . وما كان يمكن فى بلد غير أمريكا أن يتحدن ويمتزجن فقد كانت « سوزان أنتونى » بنت رجل من أصحاب المذاهب الدينية وكانت أليزابث ستانتون

وجة محام غنى . وكانت « إرنستين روز » مهاجرة يهودية .

وكان هؤلاء النساء الثلاث يطفن أنحاء البلاد . ينظمن لاجتماعات ويشجعن النساء ويعنفن الرجال . وكانت الحرب طويلة صعبة ولم تلق أول أمرها من الصحافة صدراً رحباً .

وكان أصحاب الصحف يقولون — من ذا الذى يعنى نفسه بقراءة أشياء عن هؤلاء النسوة الثرثارات المجنونات ؟

ولكن مديرى الصحف قد بدأوا شيئاً فشيئاً يعنون بتلك الحركة عناية عكسية . فحاولوا أن يغرقوا تلك الحركة فى طوفان من الغمز واللمز . على طريقة الكاتب الفرنسى الساخر « رابليه» فى تهكمه اللاذع .

وتساءل أحد الصحفيين فى جريدة « نيويورك هرالد » (١٢ من سبتمبر سنة ١٨٥٢) ما الذى يريده هؤلاء النسوة : إنهن يرغبن أن يملأن كل الوظائف التى يرغب فيها الرجال . إنهن يردن أن يكن محاميات وطبيبات وزبابنة سفن وقواداً فى الميدان

ألا يطرب المرء ويبسم إذا قرأ فى الصحف خبراً يقول : إن المحامية « لوسى ستون » قد نقلت من قاعة الجلسة فى المحكمة إلى المستشفى أثناء قيامها بالدفاع فى إحدى القضايا . ذلك لأن آلام حمى النفاس قد أعجزتها عن الاستمرار فى دفاعها . أو أن القسيسة « أنتونيت برون » قد أجاءها المخاض إلى ركن من أركان المنبر وهى تعظ القوم وتخطبهم .

أو أن الدكتورة « هريوت . ك . هنت » اضطرت – وهى تعمل عملية ناسور فى المستقيم لمريض من مرضاها – أن تستدعى هى الطبيب وأن تبقى فى مكانها لتلد توأمين . . .

ثم لما رأى محررو الصحف أن الحركة النسوية قد كسبت أنصاراً استبدلوا السخرية بالتشهير .

وكانت حكومة النساء الثلاثية تناصر فكرة التطليق بسبب إدمان الخمر . وفكرة تحديد النسل عند زوجات السكارى . فكتبت جريدة « سيراكوز ستار » إن هذا الضلال سوف يؤدى إلى أمور تقشعر من هولها أبدان الشياطين .

وحتى أولئك الذين ناصروا الحركة النسوية كان يتولاهم الدهش لدى رؤيتهم إحدى النساء تخطب الجماهير .

وقال أحد الصحفيين البارزين : لقد كانت خطبة بارعة ولكنى . . . أفضل أن أرى زوجتى أو بنتى يضمها النعش، وأن لا أراها تتكلم فى مجتمع عام .

وكان السياسيون يناصرون الصحافيين فى حملتهم التشهيرية على الحركة النسوية . فلما تقدمت « سوزان أنتونى » بخطاب إلى المجلس التشريعى فى نيويورك تطالب فيه بحقوق المرأة قام المناوئون للحركة بالرد عليها مستعينين بآيات الإنجيل . وقال أحد الأعضاء يخاطب رئيس المجلس : أيليق بنا يا سيدى الرئيس أن نبدى الرضا عن مطالب لا يقبلها العقل . وهى مطالب أقل

ما يقال فيها إنها مطالب مخجلة بل مطالب مجرمة كتلك المطالب التي ضمنتها تلك العزيضة ؟ أنقر نحن يا سيدى الرئيس حكماً باطلا يقر المساواة بين الرجال والنساء ؟ نحن نعرف يا سيدى أن الله سبحانه قد خلق الرجل ممثلا للجنس البشرى . وأن الخالق سبحانه بعد أن خلق الرجل أخذ من جنبه المادة التي خلقت منها المرأة . وأنهما بذلك أصبحا جسداً واحداً من اللحم والدم رأسه الرجل . . . فإذا أصر النساء على المطالبة بحقوقهن فليس هنالك سبيل لأن يسلم شرف الرجال من الأذى إلا بجعل نسائهن فى حراسة الأقفال والمفاتيح وإلا بين السدود والقيود . . .

ولكن النساء قد رفضن أن يظللن بين السدود والقيود . ثم بدأت الصفوة المختارة من نساء أمريكا من أمثال « لوسى ستون بلاكويل » و « لوكريسيامت » و « إيزابيلا بيشر » (أخت هريت بيشر ستو) و « أنتوانيت برون » و « أنا شو » و « كارى شابمان كات » تعضد القضية وتؤيدها بعقولهن وتصميمهن .

ولكى يخرجن الرجال من أوهامهم المتحجرة فقد عمدت زعيمات الحركة إلى ما يثير الانفعال ويحرك الاحساس بقصهن شعورهن ويلبسهن ملابس هى بملابس الرجال أشبه . وقلن « ليس أدعى لنشر الفكرة من المفاجأة » .وقد دهش رجال أمريكا فعلا وذهلوا من أثر المفاجأة . وقالوا — ماذا ؟ أتتخلى النساء عن طبقاتهن السبع من الملابس التحتية . وينبذن أقمصتهن

المنشاة ومشداتهن الضيقة . ويلبسن ملابس تجعلهن بالرجال أشبه ؟ فوا رحمة على العقل الذاهب ... ووا رحمة على الحياء الذى عفا أثره وغاض معينه . . .

وبعد قليل أقلع النساء عن زى الرجال . ولكنهن لم يقلعن عن الكفاح فى سبيل الحرية والانعتاق . ثم سرن قدماً بحرب جهادهن التى لا تعرف هوادة . ولا وقفاً . يطالبن بحق النساء فى أجورهن وبحقهن فى الولاية على أطفالهن . وكانت « سوزان ب . أنتونى » أكثر المجاهدات صلابة وضراوة . وكانت تسمى «نابليون» الحركة النسوية . وإنها وإن لم تكن بها قسوة « نابليون» فقد كان فيها ذكاؤه . وقدرته على التنظيم وتفوقه فى القيادة . وصبره على الألم . واستعصاؤه على الخضوع للهزيمة . وكلّما اشتد القوم فى مناوأتها اشتد كلبها على الكفاح .

وقد أصارتها كثرة المران خطيبة قديرة . فذهبت تطوف المدائن والقرى تستحث النساء وتعلمهن وتنظمهن . وقد رضيت صاحبتاها فى الجهاد « أليزابث ستانتون » و « إرنستين روز » من الغنيمة بالإياب . فاستنامتا إلى الراحة وكفتا عن الكفاح . ولكن « سوزان أنتونى » لم تكن تعرف طعم الراحة . وكان جلدها إحدى عجائب الجيل .

وكتبت مرة لقومها الطيبين تقول : إن القطار الذى استقلته فوق الجبال الصخرية قد ارتطم بصخرة ثلجية عمقها أحد عشر

علماً . ولكنها عرفت كيف تحافظ على موعد محاضرتها التالية .

ثم اعتلت صحتها بحكم الزمن . وأصبحت جسما مريضاً تسكنه روح ملتهبة .

وعلى الرغم مما أصابها من فقر وعسر فقد ظلت روح الفكاهة تلازمها .

وقد عاشت الآنسة أنتونى فرأت زهرة عملها ولكنها لم تشهد الثمرة .

وقد ألقى القبض عليها مرة وهى تحاول أن تعطى صوتها . ولكنها الآن لم تصبح غرضاً للسخرية وهدفاً للتهكم .

وقد تعلم نساء أمريكا أن يعبدنها . وحتى الرجال كانوا ينظرون إليها كأنها إحدى صانعات تاريخ أمريكا . وهى فعلا قد كانت إحدى صانعات التاريخ .

وكان بفضل تحريضها أن اجتاز نساء أمريكا فى سبيل تقدمهن مرحلة كان يلزم لقطعها ألف عام . فى زمن قصير لم يتجاوز الخمسين عاماً .

ففى عام ١٨٦٥ فتحت جامعة « فاسار » أبوابها لتعليم البنات تعليما عالياً . وأعدت لهن برنامجاً مساوياً لأحسن البرامج التى أعدت للرجال .

وفى العشر السنين التالية اتخذت أربع عشرة جامعة نظام التعليم الموحد .

وفى عام ١٨٨٠ بلغ عدد الجامعات التى تقبل الجنسين معاً أربعاً وخمسين ومائة .

وبدأ النساء — وقد رفع التعليم العالى من قدرهن — يحترفن مختلف الحرف .

ففى عام ١٨٥٠ كان عدد المدرسات قليلا . وفى عام ١٩٠٠ كان ثلثا المعلمين فى الولايات المتحدة الأمريكية من النساء . وسرعان ما أخذ النساء مكانهن إلى جانب الرجال فى الطب والأدب واللاهوت والقانون والفنون .

وفى عام ١٨٧٩ أتيح لأول امرأة أن تترافع أمام المحكمة العليا وهو حادث جليل الأثر فى التاريخ الأمريكى .

ثم حدث أهم حادث فى تاريخ النساء الأمريكيات . وهو رفع الحجر عنهن فيما يتعلق بالحقوق المدنية .

ففى نهاية القرن التاسع عشر كادت جميع الولايات تلغى من قوانينها كل حظر كان موضوعاً على حقوق النساء المتزوجات ، وأصبح لهن حق الامتلاك وحق التصرف فى ملكهن . كما أصبح لهن حق التقاضى . وحق الاحتفاظ بأموالهن . وحق التعاقد . وأن يشركن أزواجهن فى الولاية على أطفالهن .

وأصبح الزواج تراضياً واتفاقاً بعد أن كان استعباداً واسترقاقا . بل أصبح الزواج معاهدة مشتركة بين شريكين متساويين .

وقد عاشت الآنسة أنتونى ورأت كل هذه الاصلاحات الأصيلة . وكانت هذه الاصلاحات التى تمت . بمثابة الأزهار لما غرسته فى حياتها . ولكنها لم تعش لترى ثمار ما زرعت .

ولم يصدر القانون الذى يجيز للنساء حق التصويت إلا فى عام ١٩٢٠ أى بعد أربعة عشر عاماً من وفاتها . وإن كان بعض الولايات المنعزلة قد أجازت مثل هذا القانون قبل ذلك التاريخ .

وظلت هى لآخر يوم من حياتها تعمل لتقريب النصر النهائى وبقيت حواسها سليمة غير منقوصة . ولا سيما حاسة التفكير عندها .

وتوجت أعمال حياتها فى أخريات أيامها برحلة إلى أوربا وحضرت فى الرابعة والثمانين من عمرها مؤتمراً نسوياً عقد فى ألمانيا وكانت تحاضر وتكتب . وتجادل وتستضيف . وكأنما كانت فى نشاطها تمتح من معين من الشباب لا ينضب . ولما سئلت عن سر هذا النشاط قالت — سره إنى أدافع عن قضية كسبها غير مضمون . . .

وتميزت اقامتها فى ألمانيا بحادث يبين العقلية الرجعية للحكومة البروسية . فقد كتبت الآنسة أنتونى خطابات لأصحابها فى أمريكا . كانت تختم كل خطاب منها بنداء من نداءاتها الحربية كقولها — « ليست هناك حكومة عادلة يمكن أن تقوم بغير رضا المحكومين . وكقولها — « فرض الضرائب بغير تمثيل نيابى ظلم » .

وإذا بهذه الخطابات ترد إليها وعليها توقيع رسمى يقول : « مثل هذه الأقوال لا يمكن أن تشق لها طريقاً فى مكاتب البريد فى ألمانيا

وماتت وهى فى السادسة والثمانين من عمرها . وكان ذلك يوم الاحتفال بعيد ميلادها فى وشنطن . وكانت قد أصيبت حديثاً بنوبة من نوبات الفالج . وقد أمرها الأطباء أن تبقى فى سريرها . ولكن « العمة سوزان » ضحكت من قول الأطباء . وقالت — « إذا قدر للمطرقة أن تهبط من عل . فلتسقط على وأنا واقفة على قدمى » .

وكذلك قد تلقت الضربة وهى واقفة على قدميها . فقد ذهبت لحضور مأدبة الغداء التى أعدت تكريماً ليوم ميلادها . ثم وقفت لكى ترد على هتاف الهاتفين بآخر خطبة من خطبها النارية . وقالت : « إننى لا أرجو ثناء أو مديحاً . وإنما أرجو عدالة . وسوف تأتى العدالة فى النهاية . ذلك لأنّ الفشل مستحيل . . . » وما أن عادت إلى بيتها حتى فاضت روحها...

فلورنس نيتنجيل
١٨٢٠ – ١٩١٠

لم يكن فى مستشفى « أشقودرة » أقمصة نظيفة . ولم تكن ملابس الرجال غير خرق مشبعة بالدماء . والمستشفى لم يكن إلا ثكنة صارت إلى مستشفى . وتحت جدرانه مجار تطفح بالأوضار والأقذار . تصعد منها روائح كريهة فتضيق بالرائحة أنفاس المرضى الراقدين فى مختلف أقسام المستشفى . تلك الأقسام التى تعج بأسراب من الفيران والحشرات .

وأرض المستشفى كثيرة الشقوق . والأثاث ناقص . وكل ما يساعد على النظافة ويؤدى إلى راحة المرضى ويحفظ عليهم حياتهم لا أثر له ولا وجود .

ولو أتيح للحشرات أن تتكاتف وتتساند لاستطاعت أن تحمل على ظهورها فراش المستشفى وتسير بين النجاد والوهاد والبحار حتى تصل إلى وزارة الحربية فى لندن .

فإذا تحدث « لورد تنيسون » عن بطولة الشجعان فى الميدان تحدثت « فلورنس نيتنجيل » عن غباوة الرجال فى وزارة الحربية . فقد وصلت الأسرة من انجلترا إلى « اشقودره »

ولكن أرجل تلك الأسرة قد ركبت سفينة أخرى واتخذت طريقها فى البحر إلى ميناء « بالاكلافا » .

فكان المرضى والجرحى فى أشقودرة ينامون على فرش موضوعة على الأرض الحجرية .

هذا ما قالته « فلورنس » فى خطاب من خطاباتها وقالت فى خطاب آخر . إن الموظفين فى لندن قد أرسلوا لنا كثيراً من المؤن ولكنهم نسوا أن يرسلوا أوانى لنطبخ تلك المؤن . ولما وصلت الأوانى أخيراً جاءت الأوامر أن يقطع اللحم قطعاً متساوية الحجم . فكان نصيب هذا المريض غضروفاً خالصاً . ونصيب جاره شحماً خالصاً . ونصيب الثالث عظماً خالصاً . وكأنما أراد الآمرون بهذا أن يرسموا صورة حظ كل جندى فى الحرب.

وقالت الآنسة نيتنجيل » إن شكواى من الموظفين غير المحاربين تقوم على أنهم ينظرون إلى الجنود كأنهم آلات من آلات القتال . فإذا كسرت تلك الآلات . ورميت بها مع السلع التالفة فماذا فى الأمر ؟ لا شىء . . . والأمر سهل ... فهناك كثيرون يحلون محلهم .

وكان الجنود أنفسهم ينظرون إلى أنفسهم كأنهم خشب مسندة وأنهم ليسوا جديرين بالعناية من رؤسائهم .

وكتبت الآنسة نيتنجيل مرة تقول . — طاف معى مرة فى أنحاء المستشفى « دوق كامبردج » فعرف من بين الجرحى

رجلا من رجال الحرس قد بتر ثلث جسمه على الأقل . فقال له « الدوق » وهو يسبه ويلعنه ويدعوه باسمه ولقبه : ألم تمت بعد ؟ فقال لى الجندى – والدموع فى عينيه – بعد ذهاب الدوق أنى أقدر هذا الشعور من سموه الملكى . أليس كذلك يا سيدتى بارك الله فيه . . . . إن سموه يتساءل لماذا لم أمت بعد .

إلى هذا الميدان من قلة الكفاءة ومن الأفلاس والآلام نزلت فلورنس نيتنجيل وعصبتها الشجاعة من الممرضات وقد بلغت عدتهن ثمان وثلاثين . فخلقن من الفوضى نظاماً . وهبطت نسبة الوفيات فى المستشفى بعد وصولها إلى « اشقودره » من ٤٠ – إلى أقل من ٣٪ . ولما جاءت « فلورنس » أهلها أول مرة تعلن رغبتها فى أن تصبح ممرضة . جزع أهلها وهلعوا كأنما نزلت بهم نازلة . وقالوا : ماذا ؟ أبنت عائلة من أغنى عائلات إنجلترا وأكثرها ثراء « تحترف حرفة » من أحط الحرف ؟ ذلك لأن التمريض – فى الأغلب الأعم – كان يقوم به فى تلك الأيام (والكلمات كلمات طبيب معاصر العاهرات السكارى اللائى كن – إذا جىء بهن أمام محاكم البوليس – يخيّرن بين خدمة المرضى فى المستشفيات وبين السجن . . . .

وكن يوجدن فى كثير من الأحيان نائمات تحت أسرة المرضى الميتين بعد أن يسرقن نصيبهم من الخمر . . . .

وتقول « فلورنس » : فلما أعلنت لأهلى ما استقر عليه رأيى كنت كأنى أردت أن أكون خادمة فى المطبخ . وقالوا : ما لهذه الحرفة أعدت بنت « السيد وليم شور نيتنجيل «سيد» أمبلى بارك » فى هامشير .

إنما هو أعدها لتكون إحدى سيدات العلية من القوم كأمها الجميلة الأنيقة .

وقالوا : إن هذه الفتاة هى أجمل فتيات عائلة«نيتنجيل» وأكثرهن ثقافة . وقد علموها كما تعلم الأميرات : الرياضيات العالية والموسيقى والعلم والفن والأدب . كما علموها الإيطالية والألمانية والفرنسية وكانت تتكلم هذه اللغات فى طلاقة كأنها لغات أمها وأبيها . وكذلك علموها اللغات القديمة .

وقد قال مرة أحد علماء الجغرافيا لواحد من علماء طبقات الأرض : « إنها فتاة كاملة لولا مضايقتها إياى بلاتينيتها وإغريقيتها » .

وقد طافت بأنحاء أوربا . وهبطت مصر . وصعدت فى النيل . وكانت تستطيع التحدث إلى الأقوام كلها . فى الموضوعات كلها . وكانت ضمن من استقبلتهن الملكة . فكانت لذلك مطمح أنظار الطامحين من شباب إنجلترا . فماذا بعد ذلك تبغى ؟ ولكنها قالت : أريد أن أنجو بنفسى من هذا الضيق كله » . وكانت مستقلة فى رأيها . مستقلة فى

خلقها . وقد أوتيت فى فمها الجميل لساناً لاذعاً .

ومن كلماتها : إن جمع مختلف العلوم وتكديسها ليبعث فى النفس الضيق والحرج . وكذلك يبعث فى النفس الحرج جمع الصحاب من الطبقة الأنيقة المثقفة .

وإليك نظام تمضية الوقت بينهم :

« الإصغاء إلى شخير « لورد ملبورن » بعد الغداء . والتصفيق « للأمير ألبرت » لبراعته الوهمية فى لعبة « البليارد » . واصطحاب والدها لها لترد التحية لمن لا تود أن تحييهم . ثم الذهاب لتهنئة السيدة فلانه على عقدها الماسى الجديد . والذى بدا عليها كما تبدو حبة من فاكهة التوت فوق القرعة المستديرة . »

فأرادت « فلورنس نيتنجيل » أن تنجو بنفسها من هذا العيش المجلوب حسنه بالتطرية والمساحيق .

أرادت أن تعرف الرجال الحقيقيين فى اللحظات الحقيقية من الحياة وهى لحظات الألم الممض » .

وكثيراً ما طلب منها أبوها أن تقرأ له بصوت عال كتاباً فى أداب السلوك . اسمه فقرات من « حياة فتاة بيت » . فكانت تفضل أن تقرأ لنفسها كتاباً آخر وهو « التقرير السنوى عن معهد فلدنر » .

وهذا المعهد كان معهداً ألمانياً اختص بتخريج الممرضات وقد ولدت «فلورنس نيتنجيل» وولد معها هواها بأن تمرض

الجرحى والمرضى . وكانت هوايتها فى طفولتها أن تصلح ما أعوج « من » عرائسها وأن تضمد جراح حيوانات الفلاحين فى « أمبلى » .

وتقول هى . — إنها لما بلغت السادسة من عمرها كان قد تنبه وعيها بأنها ستصبح داعية من داعيات الرحمة .

ولما بلغت الثامنة عشرة من عمرها كانت تمشى فى صحبة صديق لها أمام غرفة الاستقبال فى قصر أبيها . فقالت لصاحبها . — أتعرف فيم أفكر كلما رأيت صفاً من النوافذ ؟ انى افكر فى كيفية تحويل البناية إلى مستشفى وفى كيف توضع الأسرة .

وفيما بين العشرين والثلاثين من عمرها فكرت فى الزواج وفى الاستقرار . وقد كان لها فى الحب قصة أو قصتان . ولكنها محت من خاطرها فكرة الحياة الزوجية . ذلك لأنها لم تخلق للزواج . وذلك لأنها قد تجد فى الزواج ما يشبع طبيعتها العقلية . وقد تجد ما يشبع شهوتها . ولكنها لن تجد فى الزواج ما يشبع طبيعتها الخلقية . وكان الفوز فى النهاية للطبيعة الخلقية .

وقد كتبت فى عام ١٨٣٠ فى دفتر مذكراتها : « إنى الآن فى الثلاثين من عمرى . وهى السن التى بدأ فيها المسيح رسالته . فعلى ألعاب الطفولة العفاء . وعلى غرور الشباب

العفاء . وعلى الحب وعلى الزواج العفاء . « ثم قالت لأبويها .

– « إنى عقدت العزم على أن أكون ممرضة » .

– ولماذا ؟ أمجنونة أنت ؟

– قد أكون مجنونة . وكل ما أستطيع أن أقوله : إنى أحمد الله على جنونى .

واقتطعت من وقتها ساعة كل يوم تدرس التشريح وتزور مستشفى الإقليم . ثم سافرت إلى ألمانيا فأمضت أسبوعين فى « معهد التمريض » فقال لها مدير المعهد – وقد رأى بضاضة يديها – إنك لن تستطيعى أن تمسحى البلاط . فكان جوابها : يمكنك أن تجربنى . فلما جربها أيقن أنها خلقت للتمريض.

ولم يمض زمن طويل حتى برهنت للشكاك من الإنجليز أنها ولدت ممرضة . ثم عينت مديرة لمصحة شارع هارلى . وهى مصحة أعدت لسيدات الطبقة الراقية المريضات . فأقامت صاحبتنا البرهان على أنها قادرة على مسح البلاط وعلى تضميد الجروح وكذلك على إحياء ميت الآمال .

وقد ثارت ثائرتها يوم قيل لها أن لا تقبل المرضى من المسيحيين الكاثوليك . وأصرت أن تقبل المرضى من كل صنف وجنس .

وقد لاقت ما يلاقيه أمثالها المجاهدون من كيد الكائدين وحسد الحاسدين. ولكنها صمدت للمحنة وخرجت ظافرة منتصرة.

ثم جاءت الأخبار أن الأحوال قد ساءت جداً فى مستشفيات القرم » وأن الجنود هم الذين يكلفون بتمريض بعضهم . فلا ممرضون ولا ممرضات ولا أربطة لتضميد الجروح ولا دواء . وارتفع صوت الرأى العام يطلب علاجاً لهذه الحالة السيئة ، ثم كتب الكاردينال «ماننج » فى جريدة التيمس يطلب أن يعهد بهذا العمل إلى فلورنس نيتنجيل .

فسمعت فلورنس الصرخة وأجابت الدعاء . وكتبت إلى سر سدنى هربرت وكان وزيراً للحربية وكان من أخلص أصدقائها . كتبت إليه تقول : إن بعثة خاصة من الممرضات قد أمرت بالسفر إلى « اشقودره » وقد طلب إلى أن أكون على رأسها . وسنقوم نحن بنفقات طعامنا وسكنانا . ولن نكلف حكومة بلادنا شيئاً . ثم طلبت إليه — دفعاً لكل شك — أن يطمئن وزارة الحربية وأن يذكر لها شيئاً عن كفاءتها . وأن يؤكد للقوم أنها ليست سيدة من علية القوم وإنما هى ممرضة مشهود لها فى فنها . وقبلت وزارة الحربية أن تبعث بها ولكن على مضض .

وفى يوم ٢١ من اكتوبر عام ١٨٥٤ أقلعت بها السفينة إلى « القرم » ولقيت فى سفرها هذا نصبا . فقد هبت الأعاصير فى البحر الأبيض المتوسط وقد ساءها ما بدا على رفيقاتها الممرضات من روح التمرد . فتأثرت صحتها ووصلت

إلى القرم مريضة .

فتقاتل الجنود على نيل الشرف . شرف حمل محفتها من محطة إلى أخرى . ولكنها سرعان ما برئت . وقالت : من ذا الذى يجد وقتاً لأن يمرض وأمامه كثير من الجرحى فى حاجة إلى العناية ؟ ثم أمامه كثير من الأخطاء يجب أن تعالج ؟ وكثير من العناد يجب التغلب عليه ؟

وكان الموظفون الموكلون بالمستشفى يصرون على أن يسير كل شىء طبقاً للخطة المرسومة . وكانوا يرون أن لا حق لامرأة أن تتدخل فى الأمور التى ثبتت كفاءة الرجال فيها .

وقد أثبتت هذه الكفاءة بؤساً مستحكماً وسوء تنظيم. ولم يكن المسئول عن هذه الحالة رجل واحد . بل كان المسئول ذلك النظام العتيق الذى يحاول أن يمشى قدماً إلى المستقبل متطلعاً دائماً إلى الوراء . وقيل فى مستشفى « أشقردرة » ما قيل فى جحيم دانتى . — « أن الداخل هنا يفقد كل أمل » .

ولكن مخلوقاً واحداً قد دخله ولم يفقد أمله . ذلك المخلوق هو « فلورنس نيتنجيل » التى بدلت الفوضى نظاماً . بإتباع طريقة سهلة ميسرة . وهى طريقة التخلص من الإجراءات الرسمية العقيمة . فبعد وصولها بقليل . أنزلت فى « اشقودره » رسالة قوامها ٢٧٠٠٠ قميص . ولكن «الموكل» الرسمى » أبى أن تفك عنها الأربطة قبل أن يجيئه الإذن من مجلس الإدارة . بقى

المرضى والجرحى ثلاثة أسابيع عراة يرتجفون . وظلت «نيتنجيل» ترجو الكساء لهؤلاء العراة ثم لا تجد لدعائها مجيباً .

وأخيراً أحيط مجلس الإدارة علماً بالمسألة بالطريقة النظامية المقررة ثم صدر الأذن .

ولما وصلت الرسالة الثانية من الأقمصة تولت الأمر بنفسها فأمرت الممرضات أن يفككن رباط الرسالة وأن يوزعن الأقمصة وظل الموكل الرسمى يضرب كفيه أسى وحزناً على أن الأمور صارت إلى « أيدى النساء وإلى أيدى الكلاب » .

ولكن النساء تحت قيادة فلورنس نيتنجيل كن قد اختططن لهن طريقاً . فمسحن بلاط المستشفى وجدرانه . وأعدن تنظيم أقسام المستشفى ومطابخه ومغاسله . ثم أعدن تنظيم توزيع الطعام حتى لا يضطر أحد أن يظل جوعان . وأضفن إلى قائمة الطعام أصنافاً مشهية كالحساء والأنبذة والمواد الهلامية وهى متع ينصح العقل باجتنابها . . . .

وكن قادرات على أن يفعلن كل هذا ذلك لأنهن كن لا يعولن على أموال الحكومة بل على أموال « نيتنجيل » الخاصة وعلى ما يجيئها من معونة ورفد من الرجال والنساء البعيدى النظر .

وقد دعا « لورد ستراتفورد دى رد كليف » سفير بريطانيا فى تركيا بالويل والثبور على هذه الأموال المضيعة فى مثل هذه

لأشياء التافهة الحقيرة . . . .

وكان يقول : لوددت أن تصرف هذه الأموال فى غرض نافع وهو بناء كنيسة إنجيلية فى القسطنطينية ...

فلما سمع هذا القول أحد الجرحى قال : إن هذا المستشفى كنيستنا والآنسة نيتنجيل » هى قسيسنا وملاكنا ...

وكم من رجل عاد إلى الحياة أو عادت إليه الحياة لما رآها بعد أن يئس الجراحون من شفائه . وكان الجنود يعبدونها وكانوا يقبلون ظلها وهى تطوف بأقسام المستشفى . وكان هؤلاء الجرحى المشوهون الذين عرفوا معنى التعب يدهشون لهذه الآنسة أو لهذا الملاك . ملاك الرحمه . التى لا تعرف معنى التعب . فقد كانت تمر بها أيام تظل جاثية على ركبتيها ثمانى ساعات تضمد الجروح وتفك الأربطة عن الأعضاء المهيضة ، وكانت أحياناً تظل عشرين ساعة تعاون الجراحين .

أما كيف كانت تجد هذا الوقت . فقد كان هذا سراً غامضاً . ذلك لأنها كانت تعمل فوق الأعمال التى أسلفنا بيانها . أعمال المستشفى الأدارية وكثيراً من الأعمال اليدوية .

وكانت تقول . — إنى أعمل طباخة ومديرة بيت وكناسة وغسالة وبياعة وخازنة . ثم كاتبة خطابات لاذعة لأوقظ بنى قومى من نومهم الهنىء وأحلامهم السعيدة .

وكانت تقول . — عندما أكتب خطاباً رقيقاً يجيئنى رد

رقيق مهذب . ولا شيء غير هذا الخطاب الرقيق المهذب . وعندما أكتب خطاباً قاسياً يصلنى خطاب قاس ولكن شيئاً يعمل ...

وكانت ـ أيام أقامتها فى أشقودرة ـ فى نضال مستمر بين إرادتها الحديدية وبين جدار المعارضة الجرانيتى وأخيراً بض الماء من الحجر ...

وكان الموظفون الرجعيون يحرقون الأرم عندما يرونها تعامل الجنود كأنهم مخلوقات آدمية . وكانوا يقولون لها : إنك بصنيعك هذا تتلفين هؤلاء البهائم .....

وكانت « الآنسة نيتنجيل » تجيب على هذا بقولها : هذا هو كل ما أبغى . فأنا أريد إتلافهم كبهائم لكى أعيدهم سيرتهم الأولى كرجال . . .

ثم عادت إلى بلادها لتعيش عمرها كله قعيدة كسيحة . ولكن عملها كان لم ينته بعد بل كان قد بدأ . فإن مستشفى « أشقودرة» ليس هو المستشفى الوحيد . إنما العالم كله كان غرفة واحدة للمرض الذى يحتاج إلى التمريض .

وكانت تلقى من القوم المديح والثناء وكانوا يجيئون زرافات ووحدانا ليحظوا بنظرة منها . ولكن أحداً منهم لم يفعل شيئاً فى سبيل معاونتها .

وقد وضعت الحكومة تحت أمرها بارجة حربية تعود بها

إلى انجلترا . ولكنها رفضت . مفضلة أن تجىء إلى بلدها فى سكون وفى غير ضجة . وقالت فى رفضها : « لا أريد أحداً يتملقنى بل أريد قوماً يفهموننى .

أما أن تجد قوماً يفهمونها فكان آخر شىء تستطيع أن تحصل عليه . وحاولت أن تفتح مدرسة لتعليم الممرضات . أو ما سمته مكاناً تستطيع المرأة فيه أن تثبت وجودها . وكان بها ظمأ شديد أن تحدث إصلاحاً شاملا . فى جميع المستشفيات والثكنات العسكرية فى انجلترا . وتحدثت إلى كل ذوى المقام فى الحكومة وتشرفت بلقاء الملكة فكتوريا وظفرت بكلمة دعاء وتشجيع من جلالتها .

وعلى الرغم من هذا كله كانت كلما ظنت أن الطريق قد تمهد . قام موظف عنيد يضع فى سبيلها العراقيل .

وكان « لورد بانمور » أشد الموظفين إصراراً وعناداً وهو خليفة سر سدنى هربرت » فى وزارة الحربية .

وقد سمته فلورنس بسبب إصراره وعناده « الثور الأمريكى» ولم يكن بينه وبينها أى عداء . ولكنه كان ينقم منها ما كان يسميه (التدخل والفضول) . فقد انتهت حرب « القرم » وكانت إنجلترا فى حالة سلم . وهو لذلك قادر على أن يستمتع بصيد القطا لولا تفكير فلورنس » السخيف بشأن مدارس التمريض والمستشفيات العسكرية والإصلاحات الصحية .

فيالها من سخيفة ثقيلة . . . وهو يستطيع أن يوقف كل هذا لا بالرفض . بل بتجزئة العطاء أقل تجزئة ممكنة .

وكذلك بدأ معركة الأهمال المنطوى على الخير . ووقف وراءه يعاونه ويعضده فرقة كاملة من الرجعيين . الذين كانوا يقولون لها قولا ليناً . مثل قولهم . — أنك جد متعبة . بل إنك مريضة . فلماذا لا تريحين نفسك زمناً ما . نستطيع بعد انقضائه أن نبحث المسألة من جميع وجوهها .

فكتبت فى إحدى خطاباتها اللاذعة ترد على « الثور الأمريكى » وأصحابه الذين عاشوا فى زمان غير زمانهم وتقول لهم . — « أنى أرقد الآن وقد طوحت برأسى الطوائح . وقد قلمت أظفارى . وأنتم جميعاً تضربوننى ضرباً متوالياً . »

أما وقد فشلت فى إقناع اللوردات فقد بدأت تحاول إقناع الجمهور فكتبت كتاباً فى موضوع التمريض يثير السخط وسمته « ملاحظات فى فن التمريض » وسهرت بنفسها على نشره حتى ترجم إلى لغات عديدة . ووصل إلى مئات الألوف من البيوت .

فأنصت الجمهور لقولها وهب لمعاونتها بالهبات وبالشكوى. وأخيراً سمح « الثور الأمريكى » كارها غير راض أن يكون طوع بنانها . وفتحت مدرسة الممرضات . وبنى المستشفى العسكرى وأدخلت الإصلاحات الصحية .

ولكن « الثور الأمريكى » — حتى وهو فى حالة الأسر — قد حاول أن يظهر للمرة الأخيرة فى مظهر الرجل المتفوق . وقال . — ما الذى يمكن أن تعرفه امرأة فى بناء المستشفيات ؟ وإن من واجبه هو أن يخطط البناية ويعد لها الرسم .

ثم أعد الرسم فعلا وبدىء بالبناء قبل أن تعطى «فلورنس» الفرصة لزيارة المشروع . ثم رأت — وهذا ما أثار فى قلبها الرعب والفزع — أن المستشفى الجديد قد أريد به أن يكون نموذجاً لأشنع الأغلاط التى حوتها المستشفيات التى نال منها البلى . فألحت على « الثور الأمريكى » أن يوقف العمل . فكان عن دعائها فى صمم . وقال لها . — إنى أعرف أحسن ما يمكن عمله . فانظرى إلى الموقع الذى اخترته . وإلى ما يستقبلك من منظر وجه المكان . فلم تر بدآ من أن تكتب إلى « لورد بالمرستون » رئيس الوزراء . وأن تبين له بالرسم أخطاء البناء فى المستشفيات القديمة . ومحاسن البناء على النظام الجديد . ثم زارت الرئيس وسلاحها حزنها ووثائقها . وبقيت فى مكتبه ساعات . وتركته مقتنعاً بأنها كانت على حق .

فكتب رئيس الوزارة إلى لورد « بانمور » : يبدو لى أنه عند البدء فى بناء المستشفى الجديد كان الاعتبار الأول ملحوظاً فيه أن يكون البناء لافتاً للنظر إذا نظر إليه من نهر « سوثمبتون» وقد ضحى فى سبيل ذلك براحة المرضى وشفائهم اكتفاء

بإرضاء عاطفة الغرور لدى المعماريين . والمرجو وقف العمل حتى تدرس المسألة الدرس الواجب .

وقد وقف العمل ودرست المسألة الدرس الواجب وأعيد بناء المستشفى كما شاءت فلورنس نيتنجيل .

ونحن الآن نراها قعيدة كسيحة . ولكنها قعيدة كسيحة من نوع غير عادى فهى الدؤوب التى لا تعرف القعود والكسل . وهى الآن جليسة غرفة فى سطح بيتها التى اشترته فى «سوث ستريت» . تستقبل الساسة والقادة والفنانين والشعراء واللوردات . وترسم بيديها الشاحبتين خطط الإصلاح فى كل ناحية من نواحى الإصلاح .

فإذا خرجت فى عربتها إلى الحدائق العامة تجمع الناس حولها . هذا يقول . — دعينى أقبل شالك وهذا يقول دعينى أقبل يدك . وهذا يقول دعينى أمتع ناظرى بنظرة إلى عينيك الجميلتين . فالشعب كان يعبدها . ذلك لأنها جعلته يشم ريح الشمال مما زاد فى صحته الجسمية فوق ما زاد فى صحة يقينه .

وقد كان من مظاهر نشاطها المتعددة أنها كتبت كتاباً فى ثلاثة مجلدات فسرت فيه الحقائق المسيحية القديمة على ضوء حاجات الناس الجديدة .

وكانت تقول : إنى امرأة . ولذلك فأنى أعنى بكل

ما يخص الطفولة والعائلة الإنسانية .

وكان عمرها يوم قالت هذا القول اثنتين وثمانين عاماً . ولكنها لم تكن ترى أنها قد بلغت السن التى تتخلى فيها عن عملها . فكانت تقضى نهارها كله تفكر وترسم الخطط وتملى خطابات فى كيف ينشأ عالم جديد . إذا بنيت المستشفيات والكنائس بطريقة أوفى وأحسن .

ونحن نراها الآن وقد بلغت التسعين من عمرها وأصبحت لا تقدر على شىء . « والحمل الأسود » الذى ينيخ فى كل بيت قد جاء يمشى وئيداً إلى بابها . ثم تخلت عن ذلك الحمل الذى يؤودها حمله فى سفرها إلى عالم الأرواح . وصحت ذات ليلة صحوة الموت وقالت . — أأنا تلك التى وقفت فى مرتفعات « القرم » ؟

ثم سألها أحد أصحابها يوماً ما : أتعرفين أين أنت ؟ فأجابته . — نعم أنى أرقب المحراب . محراب الشهداء ثم قالت فى صوتها القديم الذى ينبئ عن القوة والعزم : وسأظل أحارب فى سبيل قضيتهم ما دمت على قيد الحياة . . . . .

سارة برنار
(١٨٤٤ – ١٩٢٣)

لقد كانت حياة « سارة برنار » أكبر رواية مثّلت فيها . وإن الأقدار التى فقدت عقلها لم تجد فى أول ليلة افتتحت بها حياتها رواية بدأت كما تشاء الأقدار وتهوى أحسن من روايتها . فقد ولدت سارة لأم يهودية غير متزوجة . وكانت الأم بائعة قبعات للسيدات . وكانت تغنى فى أحد المقاهى كعصفور صغير يكاد يقتله البرد . وكانت بحكم مهنتها هذه فريسة لمغازلات الجنود المفلسين .

وقد حرمها القدر أباها وهى فى شبابها الباكر . فقد ألفت نفسها وقد ألقى بها — وهى كارهة — إلى الشوارع . وقضى عليها أن تعيش على حساب دهائها وشجاعتها .

وقد بدا أن ملاكاً من الملائكة قد نسى — فى زحمة العمل فى السماء — أن يسترعى لها نظر الخالق . ومع ذلك فقد تولاها الله برعايته .

وعلى الرغم مما أحاط بها من قسوة فقد كان بجوليا — وكان هذا اسمها — شعر فى حمرة الذهب . وكأن كل خصلة من شعرها قد عقصتها إصبع إلهية . وكان لها عينان كأن الروح

الإلهى قد نظرت فيهما قبل أن تولد . وتركت فيهما شعاعاً من النور الإلهى .

وكانت تجرى فى الحى اللاتينى مباريات غريبة فى الحب ولكن قليلا من تلك المباريات كان يملك العناصر التى تخلق الذكاء والعبقرية .

ومع هذا فقد لقيت جوليا أحد طلبة الحقوق . وكان محبًّا مخاطراً ممن جاءوا من الأقاليم . وفى ذلك المأوى الذى تمتزج فيه شمعة الطالب وشمعة حبيبته ساعة قصيرة ثم ينفصلان وكل منهما يحمل معه شمعته نصف محترقة . فى ذلك المأوى أقامت جوليا مع حبيبها وقتاً ما ثم ذهب كل منهما فى وجهة مختلفة .هو إلى الأقاليم ليحترف المحاماة وهى إلى أحياء باريس الأكثر غنى وجاهاً لتحترف الحب . ولكن هذين الطائرين البوهيميين قد تركا وراءهما تمثالا للعبقرية يقوم إلى الأبد رمزاً على طيشهما . ذلك بأنه فى أكتوبر من عام ١٨٤٤ قد ولدت سارة برنار .

وسما « بجوليا فون هارد » الحظ من دكان القبعات إلى صالونات يحمل أصحابها أضخم الألقاب فى فرنسا .

وكان دمعها كاللالىء غالٍ . فتقاضت عن كل دمعة حب ذرفتها احترافاً لؤلؤة من غالى اللالىء .

وبقيت لا تكدر صفو عيشها هموم الأمومة وواجباتها . فألقت طفلتها بين يدى مرضع فى إحدى قرى « بريتانى »

وسرعان ما نسيت كل شيء عنها .

ومرت الأيام وتزوجت المرضع بواباً فى بيت من بيوت الأحياء الحقيرة فى باريس وأخذت الطفلة معها فى مأواها الجديد وكان هذا المأوى حجرة ضيقة مظلمة تفوح من زواياها رائحة كريهة . وكانت المرضع تضع سارة فى طشت الغسيل وعليها جوارب زوجها وملابسه التحتية القذرة ثم تتولى غسلها جميعاً فى آن واحد وفى إناء واحد .

فلما كبرت الطفلة كانت تكنس سلم البيت وتغسله لقاء أجر تعليمها . وكانت تلعب وتلهو فى الأزقة الحقيرة المجاورة .

وأول لغة تعلمتها كانت متبلة ببذاءة سكان تلك الأحياء وقطانها . وقد اصطلح على لونها الشحوب كما اصطلح على جسمها الهزال والضعف . فلما بلغت الخامسة كان مرض السل منها قاب قوسين أو أدنى . وماذا ينتظر غير هذا لطفلة مشردة تخلى عنها أهلوها فلا أم ولا أب . . . .

وقد كتبت المرضع لأمها غير مرة فكان جوابها الاغضاء والصمت . وزادت الأم بأن قطعت عن بنيتها ما كانت تبعث به من مال قليل .

وحدث فى عصر يوم من الأيام أن جاءت خالة لسارة كانت تسوم سرح اللهو كأمها فى بيت مجاور فلما رأتها سارة — وكانت تلعب فى مجرى ماء قذر — عرفتها لأنها

كانت قد رأتها من قبل . فلما نزلت عن ركوبتها ومشت وهى ترفل فى الدمقس وفى الحرير سمعت من جانب الحى صوت طفلة اغرورقت عيناها بالدموع وهى تشكو وتصيح : خالتى روزين . . . خالتى روزين . . . . أبعدينى عن هذا المكان يا خالتى . إنى أختنق بين هذه الجدران . فأبعدينى يا خالتى ودعينى أرى الأزهار ودعينى أرى السماء فعادت الخالة من حيث أتت . ولم تلتفت إلى بكاء الطفلة .

وتجمعت الجموع حول « سارة » وخالتها . فلم تر الخالة بدًّا من أن تدخل بسارة عند من هى فى بيتها وسألتها ما خطبها . والطفلة لا تنى عن البكاء وعن الصراخ وهى تقول : خذينى معك . . . خذينى معك . . . . إننى سأموت هنا . . .

وكان الصراخ صراخ روح صغيرة حزينة قلقة تحارب من أجل البقاء . ولكن ماذا تستطيع أن تعمل تلك الخالة . إذ لم يكن من المعقول أن تأخذ تلك الطفلة العليلة القذرة من هذا الحى الحقير وأن تذهب بها إلى بيتها الفخم حيث تستقبل خلانها . ولذلك فقد حاولت أن تبعدها عنها بقولها : سأجىء لآخذك غداً . ولكن سارة عرفت أنها لن تجىء فراقبتها حتى ركبت عربتها ثم ألقت بنفسها من النافذة إلى أرض الشارع فسقطت على مسافة بضع أقدام من العربة . ثم أخذت وقد تهشمت أعضاؤها إلى بيت أمها .

وبقيت الطفلة على أثر هذا الحادث سنتين كسيحة في بيت أمها . ثم بدأت تستعيد قوتها وكانت قد بلغت السابعة ولم تكن إلى تلك الساعة تعرف القراءة والكتابة . . فأجمعت أمها أمرها على أن تبعث بالفتاة إلى مدرسة داخلية . وهي طريقة حسنة للتخلص منها مرة أخرى .

ولما جيء بها أمام ناظرة المدرسة لم تنطق بكلمة حياء وخجلا .

فقالت خالتها « روزين » للناظرة : ألا ترين أنها طفلة آية فى الغباوة .

وقالت أمها وهى تتنهد : لست أعرف من أين جاءتها هذه الغباوة . أنا واثقة أنها لم ترث هذه الغباوة منى .

ولكن إحدى المدرسات قالت بصوت يمازجه الحنان : إن عينيها عيناك ياسيدتى . وهى آية فى الذكاء . . .

وعندئذ قبلتها أمها وقبلتها خالتها قبلة مستكرهة وخرجتا . وعادت أمها إلى بيتها لتلد طفلا آخر .

وما إن احتوت « سارة » المدرسة حتى كتبوا لأمها أن طفلتها قد انتابتها نوبات من الغضب تركتها فريسة للحمى بضعة أيام . فعبست أمها وهى تغدق القبل على آخر محبيها . ثم أخرجت « سارة » من المدرسة وأودعتها أحد الأديرة وقالت : هنا لا تستطيع الطفلة أن تبدو للأنظار .

ومرت سنتان والأمور تبدو كأنها تسير سيراً حسناً . ومع ذلك فقد قالت الأم لحبيبها : أتعرف يا سيدى الدوق أن الطفلة دائماً فريسة هوى من الأهواء . فاما هواها مع الشر وإما مع الخير . وقد استحالت الطفلة إلى متدينة مترمتة. منذ أن عمدت فى الكنيسة الكاثوليكية . وهى تريد أن تكون راهبة . فضحك « دوق دى مورنى » كما ضحك من ضمهم حلقتها من السمار ضحكاً مدوياً والحق إن « سارة » ما كان يمكن أبداً أن تكون راهبة . ذلك أنها قبل أن تبلغ الخامسة عشرة من عمرها قد حيل بينها وبين الدير ثلاث مرات بسبب سوء سيرتها . وحدث مرة أن أغمى عليها فى احتفال مدرسى وتصنعت الموت حتى استولى القلق على رئيسة الراهبات ثم فتحت عينيها وقالت : إنما كنت أمزح . فيا لها من طفلة متمردة وكانت تقضى وقت فراغها كله فى قراءة الكتب الممنوعة وفى أكل الملبس الذى كان يهربه لها البواب .

وحدث ذات مساء أنها قادت ست فتيات وأنزلتهم من حائط الدير متخذة الملاءات سلماً للنزول. وقد رآهن الراعون ظهيرة اليوم التالى يقذفن خيل فرسان الحرس الملكى بالحجارة. وقد علمت كل من أحاط بها أن يتوقع منها كل شىء غير متوقع. وقد وقع عليها نظر القوم مرة وهى تغازل شاباً من الفرسان فلما قيل لها فى هذا عرضت نفسها للبرد وكانت على وشك الموت . وهذا ما جعل إناء الصبر

يطفح . فلما فارقتها الحمى أمرت بأن تفارق هى الدير فراقاً إلى غير رجعة. فماذا يُفعل بفتاة مهورة رعناء لمتتجاوز الخامسة عشرة من عمرها . . . ؟ وهى فتاة نحيفة ضعيفة هزيلة تشكو السعال الذى يهزها هزًّا عندما تنتابها نوباته . ولها تحت عينيها تجاعيد سود علامة فقر دم قد أزمن واستعصى على العلاج . ولكن فقر الدم هذا وهذا الشحوب . أليس لهما فتنة وسحر ؟ وهذا الشحوب يضفى على وجهها نوعاً من الجمال النادر الذى تزيد فى جماله عيناها المعبرتان إذا تكلمت . أما ملامحها فتصور كل نزوة من نزواتها . وكم لها من نزوات .

كل هذا ولم ترسم لمستقبلها خطة . فهى تحب النقش ولكن هذه الهواية لا تدر على فتاة ربحاً . وقد ترك لها أبوها — وقد أصبح الآن محامياً ناجحاً — مبلغاً من المال يحق لها أن تأخذه إذا بلغت الحادية والعشرين وبشرط أن تتزوج ولكن « سارة » لا تريد أن تتزوج . فهذا واحد من وكلاء الدعاوى يطلب يدها وهى تقول لا . . . وآخر يتقدم لزواجها فتلقى عليه زجاجة من خمر شمبانيا . . . وأحد الكونتات يضع بين يديها لقبه وماله فتلطمه على وجهه . . . .

وعقد مجلس عائلى فلما استقروا على رأى دعيت « سارة ». وقال لها دوق دى مورنى . — لقد أضنانا التفكير فى أمرك . وسنبعث بك إلى معهد الممثلات فقد يتاح لك أن تقفى على

المسرح . فامتقع لون الفتاة وصرخت قائلة : أنا لا أريد أن أكون ممثلة . . . فسخرت منها أمها وقالت : ألا ترون أنها لا تريد أن تكون ممثلة . . . كأن لارادتها وزناً وقيمة . ثم قالت لها : إنى لن أضيع فى سبيلك أى مبلغ وإن قل بعد أن تبلغى الواحدة والعشرين . . .

وحاول الدوق دى مورنى أن يهدئ من روع سارة فقال لها فى حنان ورفق : يا طفلتى سنذهب بك أملك وأنا . إلى حفلة تمثيلية هذه الليلة فى مسرح الكوميدى فرانسيز وسترين بعينى رأسك أية مهنة جميلة اخترناها لك .

وذهبت « سارة » وقد جمد الشك عينيها . وجلست فى أحد « الألواج » تشاهد أول رواية أتيح لها أن تشاهدها . فلما شاهدتها قالت : ومع ذلك فلا بأس . . . وعندئذ أمطرها أهلها وابلا من روايات «كورنى» و« راسين » و «موليير » لتقرأها وتدرسها استعداداً لدخولها المعهد . ولم يكن أمامها لكى تستعد لدخول الامتحان إلا تسعة أسابيع . وكانت مدة الدراسة ثمانية عشر شهراً .

وبعد امتحان الدخول قدموها إلى مسيو أوبير مدير المعهد فنصح لها بأن لا تحاول يوماً ما أن تكون سمينة . كما نصح لها أن تفتح حروف إل (O) وأن تطيل فى إمالة حروف أل (R) وأن تعمل على أن تعيش حياة جد يخالطها اللهو البرىء .

وأخيراً وبعد كثير من الاستذكار والحفظ وبعد كثير من الاستفزاز والزجر جاء اليوم المشهود يوم الامتحان .

وكانت أمها قد قالت لها عند دخولها المعهد جملة كانت كطلقة مدفع التوديع : إنك أغبى من أن تكونى ممثلة ولكن هذا العمل سوف ينأى بك عن مواطن السوء .

فلما فرغ الفتيات اللائى تقدمنها من تمثيل الأدوار التى اخترنها أمام الممتحنين نودى باسم « سارة » ، فارتقت خشبة المسرح . وعلى وجهها صفرة الموت ثم حيت وقالت : سأتلو عليكم قصيدة الحمامتين . . .

فقال لها أحد الممتحنين غاضباً : إن من يجىء هنا إنما يجىء ليمثل لا ليتلو أساطير وحكايات .

فلما استعادت الفتاة رباطة جأشها . بان فى عينيها الغضب وصاحت : بل سأتلو عليكم قصيدة الحمامتين . . . .

وعندئذ عرف الممتحنون أن طباع هذه الفتاة هى طباع ممثلة . وتفوقت سارة فى المعهد لا فى التمثيل ولكن فى اتخاذ الأصدقاء والأصحاب . واستناداً إلى جاه هؤلاء الأصدقاء والأصحاب ألحقت عند تخرجها بمسرح الكوميدى فرانسيز وهو أعظم مسرح فى أوربا .

فلما اعتلت خشبة المسرح أول مرة كان الفشل حليفها . وكان النقاد قساة . فشربت « سارة » السم وظلت أياماً بين

الحياة والموت . فلما شفيت قالت لأصحابها الذين تولتهم الدهشة لشفائها : إن الحياة كانت لدىّ لا قيمة لها ؛ فأردت أن أذوق طعم الموت . . .

وكانت ممثلة قديرة فى تمثيل أدوار المآسى فى كل مكان إلا على المسرح فى تلك السنين الأولى . فقد تدلهت حبا فى واحد من أصحابها ولكنها رفضت أن تتزوجه ذلك لأنه رفض أن تشهد تحنيط جثة .

وكان من عادتها أن تزور المقابر وتجلس بين القبور كأنها إحدى أخوات الراحلين إلى العالم الآخر .

وكانت فتاة غير مستأنسة ولها طباع النمرة الضارية . ففى إحدى غضباتها لطمت أقدم ممثلة فى الكوميدى فرانسيز وأكثرهن احتراماً على وجهها . ثم استقالت ملقية بمستقبل حياتها إلى الريح مفضلة ذلك على طلب المغفرة .

ثم اختفت عن باريس وأول خبر ظهر عنها فيما بعد عند أصحابها أنها رؤيت فى إسبانيا تشهد مصارعة الثيران وأنها وقعت فريسة حب لدى أحد المصارعين حمر الوجوه .

ولم يكن أحد ممن يتمنون لها الخير أو ممن يتمنون لها الشر ليستطيع أن يماشيها فى حياتها التى كانت تحياها . ففى الثامنة عشرة من عمرها كانت اللقمة الشهية لكل مائدة فى المقاهى . وكانت لها واقعة غرام مع أحد أمراء الإمبراطورية

الفرنسية وولدت له ولداً . ثم تنكر لها ولطفلها هذا المحب .
وتنقلت بين أبواب المسارح وطفلها بين ذراعيها . ولقيت عملا
فى مسرح « الجمناز » ولكنها استقالت فى نوبة من نوبات
الغضب .

ثم كانت لها صلة بالممثل الأول فى « الأديون » وهو
المسرح التالى فى الأهمية للكوميدى فرانسيز وأعطيت دوراً فى
رواية جديدة . ولم تلق إلا الفشل مرة أخرى وهى تمثل هذا
الدور .

ولا غرابة فى ذلك فقد كانت كما قال « الكسندر ديماس »
الذى كان بين مشاهديها : إن لها وجه عذراء وجسم يد
المكنسة » . وكان أولى له أن يقول قولا أكثر صدقاً : « إن
لها وجه عذراء وجسم مانعة الصواعق » . وهو ذلك الجسم الذى
احتوى كهرباء العالم كله .

وهى الآن فى الثانية والعشرين من عمرها وقد استقرت
عندها الأمور . فكان لها ولد وكانت عندها رغبة فى فعل
الخير . وكان لها صوت ندى . وقد حذقت أصول فنها وعنيت
بأمر صوتها . وأخضعت لإرادتها كل عصب من أعصاب
جسمها الدقيق . فلم تمض سنتان حتى كان لها فى الفن صوت
بعيد .

وأكبر نجاح لها صادفته لأول مرة كان فى تمثيلها رواية

« عابر السبيل » « لفرنسوا كوبيه » . وهى رواية مثلت فى باريس أكثر من مائة مرة .

ومثلث « سارة » فى حضرة الامبراطور نابليون فى قصر « التويلرى » . وتحول النقاد الذين كانوا يناصبونها العداء إلى معجبين يدقون الطبول وينفخون المزمار ويرتلون آيات الثناء .

واكتشف هؤلاء النقاد أن جسمها الدقيق وشعرها الذهبى الناعم لم يكونا نقمة من النقم بل كانا نعمة من نعم السماء .

وقال مؤلف الرواية الشاب : ماذا أقول عن « سارة » « الدقيقة التكوين » « سارة » التى لم تمنح — لحسن الحظ — أردافاً تنوء بحملها ساقاها . بل منحت ظرف شاب مهفهف القد مليح الغنج . وذلك لكى تجيد تمثيل أدوار الذكور .

فلما سمع النقاد هذا القول صاحوا جميعاً آمين .

وقال واحد منهم إن « سارة » تسير على هدى غريزة كامنة ، فهى فى تلاوتها للشعر كأنها القنبرة فى تغريدها أو الريح فى صفيرها أو البحار فى هديرها . وقد شاعت الشائعات أنها لم تكن امرأة بل كانت صبياً يتمسخر فى زى امرأة . ومن الأقاصيص التى رويت عنها أنها تصدقت على شحاذ ضرير بخمسمائة فرنك ذلك لأنه كان يشبه حبيباً من أحبابها الغابرين .

وأنها كانت تطوف الشوارع تتحدى الرجال للعراك .

وأنها كانت تدخن السيجار وتشرب الخمور القوية .

وكانت أحاديث هذه النزوات تفيض أخبارها الشوارع والبيوت .

وكانت « سارة » تطرب لشيوع هذه الشائعات . وكانت تضيف إليها قصصاً من نسج خيالها .

ولم تقنع « سارة » بما فى وجهها من شحوب فكانت تلون وجهها بالطباشير . ولم تقنع « سارة » بما قاله لها الأطباء من أن حياتها سوف لا تطول . بل صنعت لنفسها نعشاً من شجر الورد وله مقابض من فضة وكانت تؤخذ صورتها الفوتوغرافية وهى فى ذلك النعش وعيناها مغمضتان ويداها مطبقتان .

وكانت هذه طريقتها فى تحدى الموت . وكانت تضع النعش إلى جانب سريرها حتى يكون أول شىء يقع عليه نظرها إذا صحت من نومها . وكانت تأمر فيحمل مع سائر متاعها كلما كانت على سفر . وكثيراً ما نامت فيه . وكانت تصنع الشاى فوقه إذا زارها ضيف .

فهى مخلوقة مضطربة الأهواء . ولكى تعوض ما بها من نقص وضعف فقد أحاطت نفسها بعدد من الحيوانات المفترسة . فكان فى بيتها قط من القطط الأوابد وشبلا أسد صغيران وكان يصحبها إلى دار التمثيل نمر صغير . يقف إلى جانبها وهى تتزين . وكان يحرس بيتها كلب ضخم الجثة .

وفوق أنها ممثلة بارعة . فقد كانت أيضاً رسامة بارعة بقصصية أيضاً . وكانت تجيد الرسم والتأليف كما تجيد التمثيل. كانت ترسم لأصحابها صوراً . وكانت تلك الصور تعرض فى معرض الفنون الجميلة .

وكتبت رواية تمثيلية نالت نجاحاً عظيماً . وكتبت قصة فلقيت فشلا عظيماً ودرست الطب فبرعت فى التشريح .

ولقد كانت « سارة » إحدى النابغات اللائى كن يرين أن رياضتهن الوحيدة لا تقوم على ترك العمل بل على تغيير نوع العمل .

وقد عملت « سارة » وقد أحبت وقد انتصرت . فقد كانت أسماء خلانها وأسماء من يحوطونها بالملق تؤلف قائمة كبرى من الأسماء اللامعة فى فرنسا فى القرن التاسع عشر .

وهى الآن الممثلة الأولى فى الكوميدى فرانسيز . بين تلك الجدران التى أضفت السنون عليها القداسة . وكان الناس يتوقعون منها أن تمثل كلاسيكيات « راسين » و « كورنى » وكانوا يتوقعون منها أن لا تجهر بالقول أمام تمثال موليير .

ولكن العبقريين كتب عليهم أن يثيروا صخباً وضجيجاً لا يرضى عنهما المتزمتون . وكذلك لم يرض أصحاب الكوميدى فرانسيز عن الحياة التى كانت « سارة » تحياها .

ولكن لما زارت فرقة الكوميدى فرانسيز لندن جن جنون

النّظارة بتمثيل« سارة » وقد جاءوا ليشهدوا « سارة » لا ليشهدوا تمثيل فرقة الكوميدى فرانسيز . فى أول ليلة مثلت فيها هناك أذهلها التهليل والتصفيق فمثلت دور «فيدر» وكأنها كانت إحدى آلهات الأساطير السكارى . ولما أسدل الستار نزلت إلى ساحة المسرح منهوكة القوى وهى تقىء دما .

وفى اليوم التالى انسلت « سارت » من فراشها بالرغم من نصيحة الطبيب وركبت عربة سارت بها إلى المسرح . ذلك لأنه كان مقرراً أن تمثل فى تلك الليلة رواية أخرى . وقد أغمى عليها ثلاث مرات فى غرفة التزيين . وكانت نصف مخدرة بالأفيون فأدت نصف دورها وهى مذهولة تاركة جمهور النّظارة فى صخبهم وضجيجهم . وأدت النصف الآخر فى صعوبة بالغة حتّى بكى سائر زملائها وزميلاتها إشفاقاً وحزناً.

وقد أصرت « سارة » أثناء إقامتها فى لندن أن تأخذ ابنها غير الشرعى إلى بيوت الطبقات التى لا تعرف الخروج على العرف وكانت تطالب دائماً بأن توجه إليها الدعوات باسم « الآنسة سارة برنارد وابنها » .

فلما لامها فى ذلك أصحاب الفرقة استقالت . فقال لها أصحابها إنك الآن فى حكم الهاربة . فقالت لهم إنكم واهمون إنما أنا أستبدل ثكنة بأخرى . . .

وكانت تختبر بعد هذا الحادث قوة طاقتها الإمكانية

وكانت تحلم بما يخبئه المستقبل للمأساة الانفعالية من مستقبل أبعد أفقاً من أفق الكوميدى فرانسيز .

وكانت تحلم بأن تصبح صاحبة مسرح خاص بها وأن تختار رواياتها الخاصة . وأن تتولى بنفسها شرح الأدوار .

ثم سافرت إلى أمريكا لكى تدخل فيها الدنيا الجديدة . فهرع سكان تلك البلاد ليشاهدوا تلك المرأة الفرنسية العجيبة . تلك المرأة التى دوخت أوربا وجعلت جبالها ترتل ألحانها .

ولكن صحافة تلك البلاد كانت من أعاديها . وشكا النقاد أن بيان أدوارها التمثيلية مملوء بروايات يخجل منها وجه الحياء . ولا يستسيغ المسرح الأمريكى أن تمثل فى ساحته . وخاصة تلك الرواية من روايات إسكندر دوماس الصغير وهى رواية غادة الكامليا . فإنها رواية فتاة مسلولة من بنات الهوى . وهى رواية يراها الذوق الأمريكى شجى فى الحلق وقذى فى العين .

ولما وصلت « سارة » إلى نيويورك نصحها مديرو مسرحها أن لا تمثل تلك الرواية . لأن لها شهرة سيئة واسماً غير مقبول . فقالت لهم : حسناً . سأغير اسمها . فاكتبوا فى الإعلان عنها أنى أمثل رواية « كامى » ووجه المتذمرون نقدهم وتشهيرهم إلى تلك الرواية . ولكن المسارح كانت تعج بالمشاهدين كلما مثلت « سارة » تلك الرواية .

ولما سافرت « سارة » إلى شيكاغو لتمثل تلك الرواية كتب مدير مسرح « سارة » إلى رئيس الأساقفة خطاباً قال فيه لقد تعودت أنا يا صاحب النيافة أن أصرف على الإعلان أربعمائة ريال . أما وقد تفضلتم نيافتكم فقمتم بالإعلان بدلاً مني فإني أبعث لنيافتكم بمائتي ريال تنفقونها على الفقراء والمساكين .

وقد أثار تمثيل دور كامى حماسة بالغة . وقد أصبح تمثيل دور موت فتاة الهوى قطعة فنية خالدة. فلم يمثل دور الموت أحد كما مثلته « سارة » . ولو أن العديد الأكبر من النظارة لم يكن يعرف الفرنسية فإنهم عرفوا شحوب وجه الممثلة وأحسوا ببنيتها المحطمة فذرفوا الدموع حزناً على موتها الفاجع .

وكثير من أولئك النظارة تذكروا قصة قرأوها فى الصحف وهى : أنه حدث ذات ليلة فى باريس أثناء تمثيل « سارة » لأحد أدوارها أن صاح أحد خدم المسرح أن سارة قد ماتت... فهرع المدير وهرع الممثلون فوجدوها فى غرفة تزيينها ممددة على وسادة وهى فى ملابس بيضاء ويداها متعارضتان وبقعة حمراء على ذقنها وأربع شمعات ضخام فوق رأسها وعند قدميها . ثم أنزل مدير المسرح الستار وأعلن النبأ الفاجع إلى جمهور النظارة وعاد إلى غرفة الزينة لينفس عن حزنه. وعندئذ انتصبت « سارة » واقفة وأطفأت الشموع وانفجرت تضحك ضحكات شيطانية.

وهى تقول : هذا هو أعظم أدوارى . . . .

وهكذا كانت تمثل « سارة » ملكة القوام المعتدل وملكة الايماء وملكة النشاط . وفى آخر ليلة مثلت فيها فى « نيويورك » وقف على باب المسرح خمسون ألفاً يودعونها ولما وصلت إلى فرنسا وقف على رصيف ميناء الهافر خمسون ألفاً يهنئونها بسلامة الوصول .

وفى باريس استمر لفيف من النقاد يذمون « سارة » تلك الطفلة الفظيعة كما كانوا يسمونها وكان لفيف آخر يكاد يعبد « سارة » الملهمة .

واستأجرت سارة مسرحاً لحسابها وسمته مسرح « سارة » برنار » وفى هذا المسرح بلغت « سارة » مرتقى لم يبلغه من قبل أحد سواء فى الشهرة أو فى الفضيحة . وأصبحت هى المسرح وهى فن الدراما وهى معهد تمثيل المأساة والملهاة . وهى المحبة المغامرة التى تمنح نفسها من يشتهيها من أحبابها المغامرين .

وقد طوّفت بممالك أوربا ومعها ثمانون حقيبة تحوى حليها وأدوات زينتها وأدهشت الجماهير بتمثيلها ميلو درامات فيكتورين ساردو .

وكانت لا ترضى بأقل من التمام . سواء أكان ذلك فى الحسن أو فى القبيح . وقد كادت تموت فى « جنوة » . وفى بطرسبورج جن بها الجمهور . وقد حل الطلبة هناك خيلها

وتولوا جر عربتها . ودفعوا أثماناً باهظة لشهود رواياتها . وفى « كييف » لعنت وأهينت وفى « أوديسا » رجمها الناس بالحجارة وفى بلاد إسكنديناوا حيث شهر القوم بهدوء الطبع . أغمى على النظارة وهم يشاهدون تمثيلها فى المآسى .

وأثنى عليها ولى عهد إنجلترا . ووصلتها شتائم من الحكومة الألمانية . وبكى عليها قيصر روسيا .

وعندما عادت إلى باريس تحلّت بالجواهر التى أهديت لها من رؤوس متوجة فى أوربا .

« وسارة » . نعم سارة . هى نصر الشيطان المؤزر . فبعد ارتباطها بصلات الحب الوثيق مع عظماء باريس تزوجت أكبر نصاب فى فرنسا وهو « جول بول دامالا » وكان فتى جميلا كما كان فتى لا يعرف للمبادئ معنى ، حكمه فى ذلك حكم الشيطان ذاته . وقيل فى وصفه : إن له أخلاق سيد ماجد . وعقل قرد . وكان مدمن مورفين . وقد أودى به إسرافه ثم فارق الدنيا .

وقد كان هذا الزواج فشلا تحدث به الركبان كما تحدث الركبان بعدئذ بأكبر نصر بلغته فى معاركها وهو حبها بعد أن تجاوزت الخمسين من عمرها « لأدمون روستان » . وقد خلّف هذا الحب أثراً لامعاً براقاً .

ولما رأت « أدمون روستان » أول مرة كان شاعراً مغموراً ..

فكانت تصطحبه معها فى عربتها وهى تتنزه . فكان يتلو عليها قصائده . ويقرأ لها رواياته . فتآلفت الروحان . وخلق هذا التآلف « روستان » الذى عرفه المجد كما عرفه الذهب . روستان صاحب « النسر الصغير » وصاحب « سيرانودى برجراك » .

وقد مثلت سارة برنارد ألف دور من أدوار الموت ولكن قوتها كممثلة غلبت الموت . وكانت تعمل خمس عشرة ساعة فى اليوم . بينما كان أعوانها من الرجال يتولاهم الكلال . وكان شعارها : « إن الأحسن هو عدو الحسن » وأنها يجب أن تعيش وتعيش . تمثل أدواراً تتجدد يوماً بعد يوم فى مسرح هذا العالم الواسع .

وان أدوار الشبان والنساء العجائز وإن أدوار الخطاة والمنقذين من الضلالة وأن أدوار « هاملت » و « توسكا » و «تيودورا » و «جان دارك » إنما يقصد بتمثيلها أن يكون الغد أحسن من اليوم . وهكذا قضت هذه الممثلة المريضة حياتها حتى بلغت سنها التاسعة والسبعين على الرغم من وصايا الأطباء ونُذرهم .

وفى منتصف عمرها سقطت مريضة وهى تمثل دور « هاملت » والتهبت العروق فى إحدى ساقيها . وفى السنين التالية تقلصت ساقها وانكمشت فعاشت حياتها التمثيلية بعد ذلك كأنها إحدى الشهيدات . وسرى السم من ساقها إلى أعلى

أجزاء جسمها . فلما بلغت الحادية والسبعين وكان ذلك عام ١٩١٥ أنذرها الأطباء بضرورة بتر الساق . فتقبلت المحنة بالاغتباط والرضا . ومنذ ذلك الحين كانت تمثل أدوارها وهى تسير على كرسى ذى عجلات . ولكن صوتها الندىّ وفنها الساحر لم ينقصا .

وفى عام ١٩١٦ حُملت فى كرسيها ذى العجلات إلى الجنود فى جبهة القتال . ترفه عنهم فى خنادقهم فعادوا إلى معاركهم والدموع فى مآقيهم أسفاً على الجريحة العظيمة وأسى على العاجزة المجيدة .

ولما عرف الموت طريقه إليها عام ١٩٢٣ كانت تكتشف لفنها طريقاً جديداً . فقد تعاقدت مع مخرج من مخرجى الصور المتحركة . ولكنها كانت لا تستطيع مبارحة بيتها . فمثلت وهى فى حجرة جلوسها . ولما لم تستطع أن تجلس فى كرسيها همست قائلة : « صورنى فى فراشى » .

وهنا حضرها الموت بعد قيامها بتمثيل الدور تمثيلا نال إعجابها هى، وكان من عادتها أن تقول إظهاراً لإعجابها بتمثيلها : « إن الله سبحانه كان حاضراً » .

فإذا أرجعنا البصر كرة إلى أكبر رواية تمثيلية قامت بها وهى حياتها . ألا يحق لنا أن نقول : « إن الله سبحانه كان حاضراً . . . »

قصص وأساطير من الصين

الصين بلاد زينها الله بالأنهار العظيمة ، والجبال الشاهقة ، والأودية الخضر ، وحباها بكل منظر فاتن ساحر من مناظر الطبيعة الخلابة ، وجمّل كذلك نفوس أهليها بالرقة والتأمل والوداعة ، فسمت إلى العالم النوراني على أجنحة من الحكمة والروحانية .

فثل تلك البلاد الجميلة التي كانت مهد الحضارات القديمة ، لا بد أن تكون غنية بالقصص والأساطير ، تسير مع تاريخها جنباً إلى جنب ، وتنفرد عنه بما فيها من عبر وعظات تشرق فيها الحكمة ، وتوثق عراها العادات والتقاليد ، وتحليها سبحات الخيال الخصيب .

وفي هذه المجموعة صفوة مختارة من تلك القصص والأساطير ، جلوناها بلسان عربي أمين ، رجاء أن تكون للقارىء ترجماناً صادقاً لكل ما في بلاد الصين من جمال وجلال وسمو وخيال .

تحتوي هذه المجموعة على تسع قصص هي :

١ ـــ شجرة الكرز العجيبة .
٢ ـــ رأس من طين .
٣ ـــ هدية التنين .
٤ ـــ حكم رادع .
٥ ـــ الأصدقاء .
٦ ـــ كلام بوذا .
٧ ـــ الحماقات الثلاث .
٨ ـــ الحبوب المقوية .
٩ ـــ الملك شقرا .